ملتقى الإمام القرضاوي

مع الأصحاب و التلاميذ

القرضاوي وترشيد الصحوة

أ. محمد سليم

الدوحة - قطر -فندق الريدزكالرتون
٢٩/٦-٢/٧/١٤٢٨هـ ـ ١٤-١٦/٧/٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين الذي أدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح للأمة، وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وعلى من اتبع هديه وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

يفتخر كل مسلم مهتم بأمر دينه بجهود عباقرة العلماء والمفكرين للذود عن حياض الدين، والإسلام في مقدمة الأديان في كنوزها العلمية ومكتباتها الغنية، ومن تلك المساهمة الغالية للمكتبة الإسلامية مؤلفات الداعية الموفق سماحة أستاذنا الشيخ يوسف القرضاوي، حفظه الله وجعله من حزبه وأوليائه. وهو يمتاز بجهوده المضنية التي بذلها والإنجازات الفريدة التي حققها في مجال الدعوة إلى الله تحت ظروف معادية قاسية، يشبه المجتهدين المجددين، نرجو من الله العلي القدير أن يجعله منهم ويبارك في جهوده كي تؤتي ثمارها وتساهم في النهضة الإسلامية العالمية.

وهذا الفقير عاجز عن سرد تلك الصفات العديدة التي ميزته عن قرنائه من الدعاة. وإنما أحاول أن أسلط الضوء على بعض الجوانب الهامة في مواقفه المتميزة ومنهجه في الدعوة وطريقة عمله الذي يتسم بالاعتدال والوسطية في عرض الإسلام على الغافلين من أبناء الأمة وعلى غير المسلمين عامة.

وقد اخترت أن أخصص هذه الورقة لخواطري تجاه **ترشيد الصحوة الإسلامية**، ومساهمة سماحة الدكتور يوسف القرضاوي في تصحيح المفاهيم وتوجيه المسار وترشيد اتجاه كثير من الشباب والمتحمسين.

وذلك لأن الحركة الإسلامية في الهند تواجه ما واجهته حركة الإخوان المسلمين في مصر والبلاد العربية الأخرى، غير أن ظروفنا ساعدتنا أن نتدارك الموقف قبل أن يتسع الخرق على الراقع. وقمنا بحملات توعية مكثفة داخل تنظيم الجماعة الإسلامية في الهند لإبعاد الشباب المنتمين إليها عن فرق العنف والتطرف، وقد انتفعنا بأفكار الشيخ وكتاباته في هذا الباب كما خصنا نحن معاشر الهنود بفتوى حث فيه المسلمين في الهند على الابتعاد من التطرف والعنف والتمسك بالوسطية والاعتدال، علما بأن **كتاب الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف** كان في مقدمة كتب الشيخ التي اخترناها للترجمة إلى اللغة المليبارية. ونحن معاشر تلامذة الشيخ في الهند نرى الاعتماد على آرائه في كثير من المشاكل

التي نواجهها في ميدان العمل ومسائل الدعوة، بصفته داعية على بصيرة، وفق ليجمع بين الخبرة العلمية، والتجربة العملية.

وأيضا كانت حركة الجماعة الإسلامية في القارة الهندية، تقوم بالاستفادة من الصحوة الإسلامية وتؤدي واجب الدعوة والتجديد خلال نفس الفترة التي نشطت فيها جماعة الإخوان المسلمين. وكان بين أتباع الحركتين محبة خاصة ناتجة عن وحدة الفكر والغاية ووحدة المسلك والمنهج. ونظرا لظروف العمل في جمهورية الهند كنا أحوج إلى أسلوب الاعتدال واللين. كلما ابتعدنا عن العنف استفدنا أكثر في ميدان العمل، وبخاصة بين أوساط العلمانيين واليساريين الذين يقفون إلى جانب المسلمين ضد المتطرفين من الهندوس في كثير من الأحيان.

ورأس مالي في هذه المحاولة المتواضعة حبي لسماحة الشيخ وما لمسته من حبه لي إذ تذكرت تشجيع الشيخ لي أيام الدراسة، وبعد الدراسة، وتوجيهاته الغالية في الكتابة والخطابة والتعليم، وأسوته في شتى المجالات، فبدأت مستعينا برب العباد، أن أخط هذه الكلمات المتواضعة، مع إحساسي أنني أقل الناس شأنا في هذا، وابخسهم بضاعة، وأقصرهم باعا، وأقلهم متاعا. وقد تمكنت من الاستفادة من أربع مؤلفات للشيخ في الصحوة الإسلامية وكتب للشيخ أبي الأعلى المودودي أهمها كتابه القيم "تجديد الدين وإحياؤه".

مقدمة البحث:

الصحوة الإسلامية في القرن العشرين تمتاز عن حركات النهضة في القرون الماضية لأسباب شتى، منها أن حالة الأمة كانت مختلفة تماما في بداية هذا القرن. وكانت الأمة إلى هذه الحقبة مجتمعة في ظل سلطة دينية معترفة بها من قبل المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وكان المسلمون يملكون شيئا ولو قليلا من القوة للمقاومة والدفاع عن عقيدتهم وتراثهم وتقاليدهم، وكانوا معتزين بإسلامهم ولو كان تمسكهم بتعاليم الدين ركيكا فاترا. فالمؤامرات التي حيكت ضد الإسلام والمسلمين، بحيث تحط من معنويات الأمة، وتفتح المجال أمام أولياء الشياطين ليستهتروا بالعقيدة السمحة والقيم الدينية العليا والتقاليد الإسلامية الغالية تكررت كثيرا ومرت بسلام دون أن يواجهوا أدنى معارضة.

كانت الحضارة الغربية قد وصلت إلى أوجها في هذا القرن، والأفكار الغريبة التي رباها المستشرقون وجدت مدخلا إلى قلوب الكثيرين الذين تلقوا تعليمهم في البلاد الأوربية. وترجمت هذه الأفكار إلى اللغات الشرقية الهامة، ونشرت في الديار العربية والإسلامية. وهذه التدخلات الخارجية في التثقيف والتعليم سببت تراجعا ملموسا في تدين الكثيرين من المثقفين، كما حول تفكير الكثيرين منهم إلى التفسير المادي للدين، ليواكب، حسب زعمهم، بتيارات العصر الحديث.

كانت الأوساط العلمية في أوربا وتابعيهم في الشرق قد أعلنت حربا لا هوادة فيها ضد الكنيسة، وكان كل ما له صلة بالعقيدة والدين معرضا لهذا الهجوم، لأنه كان ناتجا عن حقد دفين ضد جميع ما له علاقة بالإيمان، انتقاما لما واجهه العلماء من الاضطهاد والتعذيب والإيذاء من الكنيسة في سبيل إعلان الحقائق العلمية التي اكتشفوها. ولم يسلم الإسلام من هجوم هؤلاء الماديين من العلماء، بالرغم من أن الإسلام يشجع العلم والبحث، وللمسلمين الريادة في جميع فنون العلم قبل أن تنهض أوربا في القرن الخامس عشر.

وعلى المجال السياسي كانت عصبة الأمم قد تدخلت في فلسطين وقررت تدويلها عام ١٩٢٢م تمكينا لبريطانيا لتنفيذ وعد بالفورد. كانت المؤامرة الدولية ضد المسلمين على قدم وساق. وكان موقف تركيا من الحرب العالمية قد اتخذ تبريرا لهجوم دول الحلف على المسلمين، غير أن الناظر الثاقب يدرك أن الأمور كانت مبيتة، تنفذ كل خطوة في حينها.

سقطت الخلافة الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى عام ١٩٢٤، ففرح المتآمرون ضد الإسلام والمسلمين طوال قرون، وحزن كل غيور على الإسلام حزنا شديدا. وخلا الجو لأعداء الإسلام خارج الأمة وداخلها ليعبثوا بعقول السذج من أبنائها، ويحولوا الميدان لصالح الطائشين المتغطرسين ممن يدعي العلم والثقافة.

ولكن لطف الله سبحانه بعباده كان عظيما، فقد كانت حركات النهضة قد بدأت نشاطها في أرجاء المعمورة منذ بدء القرن العشرين. فحركة الإصلاح في مصر بزعامة الإمام محمد عبده وتلميذه الشهير الشيخ رشيد رضا كانتا قد بدأت تؤتي أكلها و كانت الأمة قد تحولت ما بين مؤيد ومعارض لها، مما يدل على اهتمامهم بها، غير أن وجودها في الميدان ساعدت على إيقاظ ضمير الأمة عامة والعلماء منهم خاصة. وساهمت الحركة الوهابية في النجد والحجاز على يد الإمام الموفق محمد بن عبد الوهاب في ترسيخ العقيدة الصحيحة ومحاربة البدع والخرافات، وتأسيس دولة تحكم كتاب الله وسنة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

بسقوط الخلافة الإسلامية أحست الأمة المسلمة أنها فقدت شخصيتها وعنوان حياتها، وأيقظ هذا الحدث الأليم الأمة التي كانت في سبات عميق، وكانت ترضخ تحت ظل الاستعمار راضيا بما يجود به المستعمر المحتل من فتات الخبز مقابل كد وجهد وعناء، ولم تكن تحس بأنها قد اجتثت من أرضها وطرحت في هاوية الإهمال والتخلف، وتحولت عرضة يدوسها كل من هب ودب.

أيقظ هذا الحدث العظيم ضمير هذه الأمة وأشعل حماس عدد من العلماء الغيورين لدينهم. فبدأت الأفكار النيرة التي زرعتها جهود العلماء الذين اختاروا مسلك المتصوفة تعمل عملها – وكان اختيارهم لهذا المسلك تفاديا للتصادم المباشر مع الطغاة – فقد أشاروا إلى الحالة الكئيبة للأمة وعظم عواقب إهمال كتاب الله وسنة رسول الله، والآثار الوخيمة التي تترتب على الإعراض عن دين الله والتحول إلى المادية، حيث صار المسلمون لا يتميزون عن غيرهم إلا بالولادة أو التسمية.

وكان في مقدمة من تنبه لعمق المصاب الإمام الشهيد حسن البناء في البلاد العربية والإمام الراحل السيد أبو الأعلى المودودي في القارة الهندية. فاقتبس الإمامان الجليلان من تلك الأفكار النيرة التي

زرعها المجددون السابقون والعلماء الربانيون، وتقدموا بدعوة صريحة إلى إعادة الوعي لأبناء الأمة، وإصلاح ما أفسده الناس في العقيدة والعمل، وبذل الجهود الدائمة لتشييد صرح الخلافة الإسلامية من جديد، وشكلوا تنظيما متطورا لتوعية الأمة المسلمة، وإعادتها إلى المحجة البيضاء التي تركها عليها محمد صلى الله عليه وسلم، ولدعوة عباد الله إلى دين الله على بصيرة، (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني). وخططوا لإنجاز هذه المهمة العظمى، على أساس قوي متين مبني على كتاب رب العالمين، وعلى سنة سيد المرسلين.

كانت الفكرة واضحة جلية غير أن الأمة التي عاشت قرونا تحت نير الاستعمار الفكري وفقدت حماس الأحرار واعتزاز الأبرار وروح الجهاد وقوة الإيمان لم تكن مستعدة لتقبل على تنفيذ هذه الفكرة وتعمل لتحقيق هذه الغاية العظمى لوجود الأمة، وقد كان الغزو الفكري هيأ الكثيرين منهم ليتقبلوا سقوط الخلافة أمرا عاديا، ويعيشوا تحت نير الاضطهاد والاستغلال بكل رضا، وبدون ما تذمر أو احتجاج. وتولد من الظروف المعادية التي بقيت فيها الأمة فترة طويلة عدد من العلماء المتكيفين الذين اثاقلوا إلى الأرض، فكانوا من ألد أعداء الدعوة للإصلاح، وإعادة الوعي للأمة، وإحياء روح الاعتزاز بالتمسك بدين الله، بل بلغ ببعضهم الأمر إلى إطلاق الهجوم الشرس ضد دعوة الإصلاح حتى وصفوا الدعاة بالخوارج، الذين قالوا " لا حكم إلا لله". وتحول فريق آخر من القانعين بالوضع الذي هم فيه إلى رمي المصلحين بالابتداع والإحداث في الدين ما ليس منه، سبحان الله هكذا تحول المدعي مدعى عليه.

إن العبودية التي فرضت على الأمة المسلمة أنستها سبب وجودها على وجه الأرض، كما جاء في قول الله سبحانه " كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله" (آل عمران: ١١٠). وكما بين الغاية من خلقهم: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدوني" (الذاريات: ٥٦). ولا شك أن من ابتغى العزة في غير الإسلام أذله الله، فصاروا غثاء كغثاء السيل، مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس، خشبا مسندة يحسبون كل صيحة عليهم.

فقد قال أجدادهم عن التتار "إذا قيل لك إن التتار قد هزموا فلا تصدق"، وقالوا في المقابل "إذا قيل لك إن الإمبراطورية البريطانية التي لا تغيب الشمس فيها قد هزمت فقل هذا رابع المستحيلات". بل بلغ ولاؤهم للمستعمرين لدرجة أن تجرأ علماءهم أن يزعموا أن على المسلمين أن يطيعوا هؤلاء الحكام،

وأوردوا الأدلة الشرعية لذلك وأفتوا بوجوب طاعة هؤلاء الطواغيت التي تتآمر للقضاء على الإسلام، وتتحدى حكم الله ونظام الإسلام مستدلين بزعمهم بقول الله تعالى : يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم" (النساء:٥٩). ولا غرو أن يحصل هؤلاء المفتون على جميع التسهيلات المطلوبة لرغد العيش من سادتهم، أولياء الشياطين أينما كانوا على وجه الأرض.

هكذا بدأت الحركة الإصلاحية في الأمة في بيئة معادية مظلمة، وتضاءل الأمل أمام الشرذمة القليلة من أصحاب الدعوة، غير أنهم لم يدخروا جهدا وواصلوا العمل ليل نهار، لا يخافون في الله لومة لائم، وشاء الله تعالى أن تنمو هذه الدعوة وتزدهر وتكسب شعبية في البلاد العربية بفضل تلك الجهود المضنية التي بذلها المخلصون، والتضحيات الغالية في سبيل الدعوة بالنفس والنفيس مبتغين بذلك وجه الله تعالى. وانضم إلى صفوف الدعاة عدد كبير من الشبان المتحمسين والعلماء النابغين، حتى صاروا طودا عظيما يعجز عن مواجهته الطغاة والملحدون.

فما كان من الحكام الظالمين إلا أن يستعينوا بأربابهم من الشرق والغرب، وما آلوا جهدا في مواجهة الدعوة، ولم يتركوا بابا للقضاء عليها إلا طرقوه، ولما استيأسوا من شدة عزيمة الدعاة إلى الله خلصوا نجيا يحيكون الخطط لأنواع الفتن والاضطهاد، واستحلال العرض والمال وتعرض أولائك العزل من دعاة الحق لتعذيب تقشعر لسماعه الجلود، لم يسبق له مثيل في تاريخ البشر، وجرب عليهم الطغاة وعملاؤهم أحدث أدوات التعذيب التي اخترعوها أو زودهم بها أولياؤهم، فاستشهد عدد كبير من الدعاة الصالحين، وتحول كثير منهم إلى معاقين، ونجا قليل منهم بفضل رب العالمين.

وكانت انعكاسات هذه الاضطهادات الهمجية والمعاملات الوحشية ضد الدعوة والدعاة ذات اتجاهات متعددة، فالعقلاء من العلماء فسروها نتيجة طبيعية للعمل الدعوي نبأ بها الرسول الكريم، حيث قال "أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم". ونصحوا باحتساب الأجر عند الله: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا" (الأحزاب: ٢٣). ورأوا أن الدماء التي أريقت أغلى من أن تعوض بانتقام أو رد فعل ضد هؤلاء الجناة المجرمين، وأي دم يقابل دماء أولائك الشهداء من أكابر المفكرين، والمفسرين، والمحدثين والمجددين الذين استشهدوا في سبيل الدعوة إلى الله؟ لا يستطيع أن يعوض عنها إلا الله الذي له ملك السماوات والأرض.

ومرت الأيام، والأحداث تتوالى، والطغاة يتجاوزون المدى، ونفد صبر أولائك المتحمسين الذين قبلوا أول الأمر بنصائح الكبار من الأئمة والمفكرين. فسرعان ما غيروا تفكيرهم عندما وجدوا من يتعاون معهم لمواجهة العنف الاضطهاد. ووجدوا آذانا صاغية من بعض المنتمين إلى الحركة الإصلاحية وبخاصة أولائك الشباب الذين كانوا قوة الدعوة ومصدر حيويتها، وقالوا لا يفل الحديد إلا الحديد، وإن من الحماقة أن نواجه هؤلاء الطغاة بالحجج والأدلة، إنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، لا يعرفون إلا لغة القوة والسلاح، فتعالوا نواجه العنف بالعنف، والسلاح بالسلاح. وحاولوا أن يجمعوا أكبر عدد ممكن إلى صفوفهم. ولم يلبث أن يجد أهل هذه الفكرة أتباعا ومؤيدين، وعددا من المتحمسين استعدوا أن يضحوا بأنفسهم في سبيل الله. وكانت كارثة الانحراف هذه أكبر وأخطر من كل الكوارث التي داهمت حركات الدعوة في تاريخها الحديث، في مشارق الأرض ومغاربها.

ولعلنا نستغرب عندما نرى أنه لم يدرك آفة هذا الانحراف من الجادة كثير من علماء الأمة، بل حسبوه من الردود الطبيعية لوقف الطغاة والملحدين في وجه الدعوة، فآثر بعضهم الوقوف إلى جانب أولائك المتحمسين، وفضل بعضهم السكوت، وأفتى بعضهم بجواز حمل السلاح في وجه الطغيان، مستدلين بالأدلة الشرعية حسب فهمهم لها. فكان هذا من قبيل صب الزيت في النار المشتعلة، وانتشرت فكرة الجهاد المسلح بين صفوف الدعاة. ولم يصغوا إلى صوت العاقلين من الأمة الذين أنذروا عن الآثار الوخيمة لهذا الانحراف في الدعوة، والتحمس لكسب القوة والتدريب على السلاح.

كان الأمر جد حساس، فإن من اعترض على الشباب المتحمسين يتهم بأنه ضد حركة الإصلاح بل ضد الإسلام على الإطلاق، وأنه يرضى بالوضع المخزي لأمة سادت وقادت العالم أربعة عشر قرنا واتسعت رقعة مملكتها من فلبين إلى فرنسا، يرضى أن تكون هذه الأمة الأبية عبيدا لنظريات مستوردة لا تمت إلى الحق بصلة، وإنما هي ثياب متسول، مرقعة من عدة أصناف من القماش البالي. يرضى أن تكون هذه الأمة التي أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتحكم بما أنزل الله، أن تكون عبيدا ينفذون أوامر الطواغيت والملحدين والجبابرة.

وأما إذا سايرهم وشجعهم على أسلوبهم الخطير ساهم في استئصال جذور الدعوة التي تعتبر العلاج الأخير للداء العضال الذي أصيبت به الأمة المسلمة، فأين المفر؟ وكيف الطريق للوصول إلى قلوب

هؤلاء الشباب الذين عزموا على الانتقام من تلك الأوضاع الفاسدة وتحويلهم من فكرة العنف المهلك إلى العقل الواعي المدبر؟

وكان سماحة أستاذنا الحبيب العلامة يوسف القرضاوي حفظه الله سلك طريق الوسطية والاعتدال في الدعوة منذ أول وهلة، وبالرغم من تعرضه شخصيا للمعاملة السيئة والتعذيب والاضطهاد من أولياء الشياطين، كان في مقدمة من تنبه لخطورة استخدام القوة باسم الدين والدعوة ضد أهل الكفر والإلحاد، وعارض جمع الدعاة على مشاعر العنف والانتقام. فقد وفقه الله تعالى ليرى بثاقب نظره أن هذه الفكرة العنيفة ستقضي على حركة الإصلاح وتتخذ ذريعة لاستئصال هذه الفئة القليلة من الدعاة، ولا يستفيد منها إلا أعداء الإسلام والمسلمين. وبدأ يكتب ويخطب ضد التطرف والعنف، مؤيدا رأي الإخوان المسلمين كما بينه الداعية مرشد الإخوان سابقا المرحوم الشيخ حسن الهضيبي، فقد بين موقف حركة الإخوان المسلمين من تكفير الأمة وإشهار السلاح في وجه المسلمين في كتيبه " دعاة لا قضاة".

ولعل من طرائف الصدف ولطائف القدر أن نرى أن الأستاذ السيد أبا الأعلى المودودي، الذي يدعي دعاة العنف أنهم اعتمدوا على كتبه وآرائه في اتجاههم المتطرف، قد طالب الجماعة الإسلامية في الهند وباكستان أن يسلكوا طريق الاعتدال ويتجنبوا مسلك العنف، ولم يقف عند هذا الحد بل نصح المسؤولين للدعوة في الهند أن يتعاونوا مع الحكومة الهندية فيما لا يخالف الشريعة نصا وروحا.

كان من ثمار هذه الحكمة في الدعوة أن الحكومة الهندية عجزت خلال نصف قرن من الزمن أن تقدم دليلا واحدا في المحاكم الهندية تدين به الجماعة الإسلامية. وكانت الحكومة قد حظرت الجماعة الإسلامية مرتين بحجة أنها جماعة متطرفة تعتبر خطرا على المجتمع الهندي، وعلمانيته وتعدديته، فما كان من الجماعة الإسلامية إلا أنها تحدت الحظر في المحاكم وبعد المحاكمة ومراجعة تاريخ العمل الدعوي للجماعة رفع الحظر بإعلان براءة الجماعة عن كل التهم الموجهة ضدها. فكانت شهادة لصالح الجماعة الإسلامية من المحاكم الهندية.

فدعوى أن الإمام المودودي كان من دعاة التطرف والعنف لا تمت إلى الحقيقة بصلة. والتاريخ شاهد على أنه سلك مسلك الوسطية والاعتدال في الدعوة، ورد على المستعجلين لثمار الدعوة بأن الرسل

المختارين والأنبياء المعصومين لم يتمكنوا من إتمام مهمة الدعوة إلا بتضحية النفس والنفيس في مدة طويلة استغرقت أعمارهم. فكيف تتمكن هذه الجماعات المؤلفة من عوام البشر أن يدركوا غايتهم في لمح البصر؟

وهذا التوافق بين تفكير العلامة يوسف القرضاوي وهو يعمل في البلاد العربية، والإمام المودودي الذي كان مجال عمله في القارة الهندية بين أوساط المسلمين، أغلبهم ممن لا يجيد اللغة العربية، أكبر دليل على أن كليهما على حق، ومصيب في اجتهاده. بل الذي يظهر للمتتبع لآراء الدعاة من المفكرين القدامى أن الدعوة إلى العنف ليس من اختيار الأئمة المعتمدين، وإنما هو من طيش الشباب المتحمسين الذين يستعجلون ويطمعون في الوصول إلى النتيجة في أقصر وقت ممكن.

ومن البديهي أن الدعوة لا تتفق مع العنف، لأن الله تعالى منح الإنسان حرية اختيار منهج حياته. يقول في محكم كتابه: "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" (البقرة) وقال أيضا مرشدا رسوله: "فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر" (الغاشية) وقال أيضا: إنما على رسولنا البلاغ المبين. والناظر في كتاب الله يدرك أن الله لم يسمح بالقتال إلا للمقاومة: أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا، "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم".

الصحوة الإسلامية وتجديد الدين:

كانت نظرة الأستاذ الدكتور يوسف إلى الصحوة نظرة شاملة، وكان تحليله لها تحليلا دقيقا كعادته في النظر في الأمور. فهو يرى أن هذه الصحوة التي تمتع بها المسلمون في القرن العشرين من أكبر النعم التي أنعم الله تعالى بها على الأمة، وأن على المسلمين أن يحسنوا استخدامها لتجديد الدين، والنهوض بالدنيا. فقد ألف كتبا عديدة ونشر مقالات كثيرة، وألقى محاضرات وأصدر فتاوى في توجيه الصحوة الإسلامية وترشيدها حتى يستفاد منها في الوصول إلى الغاية العظمى لوجود خير أمة على وجه الأرض.

لننقل كلماته حيث يقول عن المقالات التي كتبها في ظروف مختلفة وأزمنة متباعدة: أنها جميعا – قديمها حديثها – تتجه إلى مصب واحد، وتسعى إلى هدف واحد:

هو الإسهام في إيجاد صحوة إسلامية حقيقية أصيلة، تتميز بالرشد والنضج والاستنارة. صحوة عقول ذكية، وقلوب نقية، وعزائم فتية. صحوة تعرف غايتها، وتعرف طريقها، وتعرف من لها ومن عليها، من هو صديقها ومن هو عدوها.

صحوة تعمل على تجديد الدين، وإنهاض الدنيا به، صحوة تصحح المفاهيم المغلوطة، وتقوم المسالك المعوجة، وتوقظ العقول النائمة، وتحرك الحياة الراكدة، وتنفخ الروح في الجثة الهامدة، وتعيد إليها الحياة والحركة والنماء.

نحمد الله أن مداد العلماء ودماء الشهداء وكلمات الحداة، وجهود الدعاة، وجهاد المصلحين، لم تذهب سدى، ولم تكن– كما ظن الظانون– صيحة في واد، أو نفخة في رماد، بل آتت أكلها في حينها بإذن ربها. (من أجل صحوة راشدة ص ٧)

وفي كتابه (الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي) حلل الصحوة بعد ذكر معانيها في اللغة بقوله: الصحوة إذن تعنى عودة الوعي والانتباه بعد غيبة.

وقد عبر عن هذه الظاهرة في بعض الأحيان بعنوان (اليقظة) في مقابل (الرقود) أو (النوم) الذي أصاب الأمة في عصور التخلف والركود، وفي مقابل التنويم الذي أصابها في عهود الاستعمار العسكري والسياسي الذي خلف ألوانا أخرى من الاستعمار، هي في الحقيقة أدهى وأمر،وأخطر منه وأشر، وهي الاستعمار الثقافي والاجتماعي الذي يسلخ الأمة من ذاتيتها كما تسلخ الذبيحة من جلدها.

ومهما يكن التعبير عن هذه الظاهرة فهي حقيقة واقعة، نلمسها اليوم في مظاهرها المتعددة ومجالاتها المتكاثرة.

وهي على أية حال ظاهرة ليست غريبة على طبيعة الإسلام وطبيعة أمته، بل الغريب حقا ألا تكون. فمن طبيعة الأمة المسلمة ألا يستمر نومها وغيبها عن الوعي أزمانا تتطاول. فمن طبيعة الإسلام أن يوقظ فيها عوامل التنبه وبواعث التحرك، ما دام قرآنها محفوظا في الصدور، متلوا بالألسنة، مسطورا في المصاحف، وذلك ما تكفل الله بحفظه: إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون. (سورة الحجر: ٩) وما دامت سيرة نبيها بين أيديها وسيرة أبطالها نصب عينيها تضيء مصباح التأسي وتوقد جذوة الحماس في القلوب. (ص ١٢)

وكما ذكرنا سابقا، فإن المفاهيم التي تأثرت بالبيئة المعادية كانت في حاجة إلى التصحيح، حيث كان الخواص والعوام قد تأثروا بالأفكار الغريبة التي نشرتها ألسنة الأعداء والمغرضين، ومن أهم ما وقع فيه الخطأ التصور الصحيح لطبيعة هذا الدين، الذي أنزله الله نظاما شاملا لحياة الإنسان على هذه البسيطة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وكان العلمانيون الذين جعلوا القرآن عزين، يريدون أن يفصلوا الدين عن الحياة، ويجعلوه علاقة بين العبد وربه، لا يتجاوزه إلى الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن أجل إماتة الدين زعموا أن ما جاء في القرن السابع الميلادي لا يصلح لتطوير الإنسان في القرن العشرين، ولا يتماشى مع متغيرات الحضارة والتقدم.

وخفي على هؤلاء أن الإنسان في القرن العشرين لم يتغير عنه في القرن السابع، ولم تتغير مع متغيرات الحضارة خصائصه الطبيعة، ونفسيته الوراثية، وأن الأصول التي بنى الله عليها الشريعة الإسلامية باقية في كل زمان، ما دام الإنسان باقيا. وطريقة تطبيق الشريعة بكل تفاصيلها تتوقف على فهم العلماء المجتهدين الذين يستنبطون الأحكام التفصيلة من تلك الأصول الثابتة. وهذا الاجتهاد الذي نشأ من أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، هو المنبع الذي لا ينضب للقوانين والتنظيمات التي يحتاج إليها الإنسان في كل زمان ومكان.

وذكر خصائص الصحوة الإسلامية بما نصه: وهذه الصحوة التي نعيشها اليوم هي صحوة عقل وفكر، وصحوة عاطفة وقلب، وصحوة إرادة وعزم، وصحوة عمل ودعوة، فهي صحوة شاملة وهذا من خصائصها. ثم بين هذه المقولة بالأدلة والأمثلة. وأضاف إلى تلك الخصائص أنها صحوة الشباب المثقف، وأن الشباب هم عمودها الفقري، والعنصر الفعال في مسيرتها، سواء كان هذا الشباب من الفتية أم من الفتيات. وأورد لذلك دليلا من الواقع الملموس حيث يقول: وقد مضى زمن كان رواد المساجد فيه هم (الشياب) الذين استدبروا الحياة واقتربوا من حافة القبر...

أما اليوم فيشهد كل من كان بينه وبين المسجد صلة، أن رواد المساجد الحريصين على الصلوات في أوقاتها وعلى الجماعات الأولى ما استطاعوا هم شباب في عمر الزهر، وقي مقتبل العمر، رغبوا أن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.(ص:١٩)

و أضاف أيضا: أنها صحوة مسلمين ومسلمات، ومن خصائص هذه الصحوة أن للمرأة فيها مكانا ملحوظا، وللفتاة المسلمة خاصة، دورا مرموقا، لا يجحده من له عينان. وأبرز ما يدل على هذا المعنى ويجسمه (الحجاب). (ص:٢١).

وتحدث الشيخ عن عوامل الصحوة حيث سرد الأقوال المختلفة فيها، وفندها تفنيدا، ثم قال: من شأن هذه الأمة – وفق ما جاء به القرآن، وما أخبر به الرسول (ص)، وما نطق به التاريخ – أن لا تجتمع على ضلالة، وأن تظل فيها طائفة على الحق، داعية إلى الخير، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون.
يقول الله في كتابه: وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، (الأعراف:١٨١). ويقول الرسول الكريم: "لا تزال طائفة من أمتي قائمين على الحق، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك". ويقول : أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها". ويقول التاريخ: إن هذه الأمة قد أصابتها نكسات ونكبات كبرى، منذ فجر تاريخها ظن الناس معها بها ما الظنون، وابتلي بها المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا.
ولكن الأمة استطاعت أن تتغلب على عوامل الضعف من الداخل، وعوامل الغزو من الخارج، وأن تحول الهزائم إلى انتصارات، وأن تخلق من الضعف قوة، ومن التفرق وحدة، ومن الأشلاء المبعثرة جسما عملاقا. وقال التاريخ أيضا: إن هذه الصحوات الكبرى لم يصنعها غير الإسلام حين يجد من يعلي كلمته، وينادي باسمه، ويجند قوى الأمة تحت رايته. (ص:٣١)

حركات التجديد والدعوة وأثرها في الصحوة:

هناك حقيقة يجب أن تعرف وتذكر إذا تحدثنا عن أسباب الصحوة ومكوناتها وهي: أن الصحوة المعاصرة التي نشهد آثارها ومظاهرها اليوم لم توجد من فراغ، ولم تولد دفعة واحدة، ولم تكن نباتا شيطانيا ظهر وحده، بغير زارع ولا راع كما تصور بعض الناس.

إن هذه الصحوة امتداد وتجديد لحركات إسلامية، مدارس فكرية وعملية، قامت من قبل، انقرض بعضها ولا زال بعضها قائما بصورة، أو بأخرى حتى اليوم، حركات قام عليها رجال صادقون،

حاول كل منهم أن يجدد الدين، أو يحيي الأمة، في بقعة معينة أو أكثر من بقعة من أرض الإسلام، أو في جانب معين أو أكثر من جانب من جوانب الحياة، في الاعتقاد أو الفكر أو السلوك.

يذكر التاريخ منهم مجدد الجزيرة العربية باعث الدعوة السلفية خريج المدرسة الحنبلية الشيخ محمد بن عبد الوهاب (ت ١٢٠٦ هـ، ١٧٩٢م) الذي قامت على أساس دعوته الدولة السعودية.
ويذكر منهم مؤسس الحركة السنوسية في ليبيا الشيخ المعلم المجاهد محمد بن على السنوسي (ت ١٢٧٦ هـ ١٨٥٩م).
ويذكر منهم الداعية الثائر المجاهد، الذي أيقظ الإسلام في الشعب السوداني، وقاتل الاستعمار الإنجليزي، وانتصر عليه، وأقام للإسلام دولة في جنوب وادي النيل، الإمام محمد أحمد المهدي (ت ١٣٠٢ هـ ١٨٨٥م).
ويذكر منهم موقظ الشعوب، ومنبه الأفكار، وعدو الاستعمار، وباذر بذور الثورة عليه في عالم الإسلام، داعية (الجامعة الإسلامية) السيد جمال الدين الأفغاني (ت ١٣١٤هـ ١٨٩٧م).
ويذكر منهم الأديب الرحالة المصلح، داعية الحرية السياسية، وعدو الاستبداد السياسي، الشيخ عبد الرحمن الكواكبي صاحب الكتابين الشهيرين "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" و"أم القرى" (ت ١٣٢٠ هـ ١٩٠٢م).
ويذكر منهم تلميذ الأفغاني وشريكه في تحرير (العروة الوثقى) وفي حركة الإيقاظ والتجديد، رائد الإصلاح الفكري والتعليمي، شيخ المدرسة العقلية الحديثة الأستاذ الإمام محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ ١٩٠٥م).
ويذكر منهم تلميذ الشيخ محمد عبده وصاحبه، ناشر علمه، الذي أخذ من شيخه الاستقلال في الفكر، والثورة على الجمود والتقليد، وأضاف إليه التوغل في علم الحديث وآثار المدرسة السلفية، فجمع بين القديم والجديد، ووازن بين المعقول والمنقول، وأصبح يمثل بجلاء (السلفية المجددة) التي تجسد الأصالة والمعاصرة بحق. ذلكم هو العلامة السيد رشيد رضا صاحب مجلة (المنار) و(تفسير المنار)، والكتب التي كانت في وقتها نماذج تحتذى، ومصابيح بها يهتدى (ت ١٣٥٤هـ ١٩٣٥م).
ويذكر منهم المربي المجاهد الصابر، الذي قاوم علمانية الكماليين، وطغيان أتاتورك وأشعل جذوة الإيمان في قلوب الأتراك، بالتربية والقدوة، وبالرسائل الموجهة، الشيخ بديع الزمان نورسي.
ويذكر منهم الرجل القرآني، والمعلم الرباني، الذي جسد بدعوته شمول الإسلام وتوازنه وربانيته وواقعيته، فربط الفكر بالحركة، ومزج العلم بالعمل، وجمع بين التربية والجهاد، كما جمع بين لقاء

العقيدة السلفية وروحانية الصوفية السنية، ودعا إلى الإسلام عقيدة ونظاما، دينا ودولة، عبادة وقيادة وحارب الفساد والظلم في الداخل والاستعمار والصهيونية في الخارج، وربى جيلا جعل الله غايته، والرسول أسوته، والقرآن شرعته، والجهاد وسيلته، والموت في سبيل الله أسمى أمانيه، إنه مؤسس كبرى الحركات الإسلامية الحديثة في العالم: الإمام الشهيد حسن البنا (ت ١٣٦٨هـ ١٩٤٩م). واضع أسس العمل الإسلامي الجماعي. الذي انتشرت رسائله وتلاميذه، وتلاميذ تلاميذه في العالم كله انتشار أضواء الصباح، وشاء الله أن تكون المحن المتتابعة التي صبت على أخوانه وتلاميذ مدرسته، سببا في هجرتهم بدعوتهم، وتفرقهم في أقطار الشرق والغرب، فتنتشر بهم الدعوة والصحوة في كل مكان.

ويذكر منهم المفكر المجدد، صاحب النظر العميق، والتحليل الدقيق، ناقد الحضارة الغربية على بصيرة، والداعي إلى نظام الإسلام عن بينة، صاحب الكتب والرسائل والتفسير التي ترجمت إلى عشرات اللغات، الذي وقف في وجه دعاة (التغريب) وأعداء السنة والمنادين بنبوة جديدة، والمرتزقة من الخرافيين القبوريين، ومشوشي الفكر، من المقلدين الجامدين مؤسس كبرى الجماعات الإسلامية في شبه القارة الهندية: العلامة أبا الأعلى المودودي (ت١٣٩٩هـ ١٩٧٩م) الذي اتفقت أصول دعوته مع أصول دعوة حسن البنا، وإن لم يلتقيا، وإنما التقى أبناء المدرستين وتعاونوا في مجالات شتى، خصوصا في أوربا وأمريكا والشرق الأقصى.

ويذكر منهم العالم الداعية المربي، الذي عايش القرآن مفسرا ومطبقا، ودعا إلى السلفية الواعية والروحانية الصوفية، وحارب الجمود في الفكر والانحراف في العقيدة والعوج في السلوك، ووصل العلم بالتربية، مؤسس جمعية العلماء في الجزائر، منشئ مجلة (الشهاب) التي كانت كاسمها نورا يهدي الحائرين، ورجما يرهب الشياطين، الشيخ المصلح : عبد الحميد بن باديس (ت ١٣٥٩هـ،١٩٤٠م).

ويذكر منهم الداعية الفقيه الصابر المجاهد، صاحب الروح المشرق والبيان المغدق، والعقل المنفتح، الذي قاوم أعداء السنة، فأسكتهم، ودعاة العلمانية فأفحمهم، مؤسس الحركة الإسلامية في سورية، ومنشئ مجلة (حضارة الإسلام) وصاحب الكتب القيمة، والرسائل النافعة: الشيخ الدكتور/ مصطفى السباعي (ت ١٣٨٥هـ، ١٩٦٥م).

ويذكر منهم الرجل الصلب، الذي أوذي في الله، فما وهن وما ضعف وما استكان، وقدم عنقه فداء لفكرته، صاحب القلب البليغ، والروح المحلق، والفكر الثائر، صاحب التصوير الفني، والعدالة والظلال والمعالم وغيرها من الكتب التي انتشرت في لغات العالم الإسلامي، شرقا وغربا، الأديب الكبير الداعية الشهيد سيد قطب. (ت ١٣٨٦، ١٩٦٦م).

هؤلاء الميامين من الدعاة والمفكرين كان لكل منهم تأثيره في جانب من الجوانب، على عدد من الناس، يقل أو يكثر، وفي رقعة من الأرض، تضيق أو تتسع، وعلى مدى زمني يقصر أو يطول، وإن كان كل واحد منهم يؤخذ منه ويرد عليه، باعتبارهم بشرا غير معصومين، يجتهدون في خدمة الإسلام، فقد يصيبون، وقد يخطئون، وهم على كل حال مأجورون على اجتهادهم، حتى فيما أخطأوا فيه إن شاء الله.

وكان لأصحابهم وخلفائهم وخريجي مدارسهم الفكرية والحركية نصيب لا يجحد في حركة البعث والإحياء الإسلامي، التي نقطف بعض ثمراتها اليوم. (ص ٣٥)
ثم ذكر الشيخ دور الحركات الإسلامية والجهادية والدعوية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي والشعراء والأدباء والمفكرين المسلمين الذي ساهموا في توعية الأمة وزرع روح الحماس فيهم، من أمثال الشاعر الفيلسوف العظيم محمد إقبال، وأديب الإسلام مصطفي صادق الرافعي وأمير البيان شكيب أرسلان وغيرهم.

تيارات الصحوة وأعظمها:

يرى الشيخ أن الصحوة الإسلامية تشعبت إلى تيارات وفصائل متعددة تتفق كلها على حبها للإسلام، واعتزازها برسالته، وإيمانها بضرورة العودة إليه، والعمل به، والدعوة إلى تحكيم شريعته، وتحرير أوطانه، وتوحيد أمته، والوقوف في وجه الكائدين له، ولكنها تختلف في قضايا ومواقف كثيرة، بعضها في التفصيلات، وبعضها في الاتجاهات المهمة، واختار أن يتحدث عن أهم تيارات الصحوة وأعظمها، وهو (تيار الوسطية الإسلامية) للأسباب التالية:

أولا: لأنه التيار الذي يمثل أعرض قاعدة في الصحوة الإسلامية، وما عداه بمثابة قنوات صغيرة.

ثانيا: لأنه التيار الأعرق والأقدم في تاريخ الصحوة أو التجديد الإسلامي، والتيارات الأخرى حديثة العهد.

ثالثا: لأنه التيار الذي يرجى طول عمره واستمراره، فإن الغلو دائما قصير العمر ولا يتوقع له البقاء طويلا، وفقا لسنة الله.

رابعا: لأنه في رأي الشيخ هو التيار الصحيح، الذي يعبر عن وسطية المنهج الإسلامي الذي سماه القرآن الصراط المستقيم، ووسطية الأمة الإسلامية (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا).

كما يمثل وسطية أهل السنة بين الفرق الإسلامية المختلفة، ممن يبالغون في تضخيم دور العقل على حساب النص، أو دور النص على حساب العقل.

ثم فصل القول في بيان خصائص تيار الوسطية، وركز على أربع خصائص منها:

أولا: **الجمع بين السلفية والتجديد:**

فالسلفية تعني العودة إلى الأصول، والجذور، ولهذا يطلق على دعاة هذا التيار (الأصوليون).

والتجديد يعني المعايشة للعصر، والمواكبة للتطور، والتحرر من إسار الجمود والتقليد.

ومن الخطأ الذي يجب تصحيحه هنا: اعتبار الرسول الكريم المؤيد بوحي الله من جملة (السلف)، واعتبار القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من جملة (التراث)، واعتبار الإسلام كله من جملة (الماضي).

إن الإسلام ليس ماضيا انقضى وانتهى زمنه، نحاول أن نستعيده، إن الإسلام هو الماضي، وهو الحاضر، وهو المستقبل.

والقرآن هو كلمات الله الهادية الباقية على طول الزمان وامتداد المكان. و خطاب الله (يا أيها الناس) و(يا أيها الذين آمنوا) خطاب للمكلفين في كل عصر ومصر، سواء كانوا في القرن السابع الميلادي، أو في القرن العشرين، أو الخمسين.

إن فقه أبي حنيفة، وأصول الشافعي، وكلام الأشعري، وأدب الجاحظ، وشعر أبي العلاء، وآراء ابن حزم، وتصوف الغزالي، وفلسفة ابن رشد، واجتهادات ابن تيمية، وغيرهم وغيرهم من عمالقة الفكر الإسلامي في مختلف العصور، كلها تراث بشري نأخذ منه وندع، وفق القواعد والمعايير العلمية التي وضعها الإسلام في أيدينا.

وردا على من أنكر التجديد قال الشيخ: لقد صرح الرسول الكريم بتجديد الدين حيث قال: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها" فلا يحق لزيد من الناس اليوم أن يقول إن الدين لا يقبل التجديد، والمهم تحديد مفهوم التجديد، ومجاله وحدوده. فليس التجديد إخراج طبعة جديدة من الإسلام (مزيدة منقحة) بل المقصود تجديد الفقه له الإيمان به والعمل بمقتضاه، والدعوة إليه، فهو تجديد فكري، وإيماني وعملي وجهادي.

ويرى الشيخ أن هناك تلازما بين السلفية الحقيقية والتجديد الحقيقي. وقد تجلى هذا المعنى بوضوح في المدرسة السلفية التجديدية الكبرى التي أسسها شيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته، وكان لها أثرها العميق في العقائد والفقه والفكر والأخلاق والسلوك إلى اليوم.

ثانيا: **الموازنة بين الثوابت والمتغيرات:**

أما الثوابت فتتمثل أولا في العقائد التي تمثل فكرة الإسلام الكلية عن الألوهية والعبودية، وبعبارة أخرى عن الله وعن الإنسان وعن الكون بشقيه المنظور وغير المنظور. وموقف الإسلام هنا موقف المخبر عن حقيقة هذه الأشياء، الموجب للإيمان بها كما هي، بلا تهوين ولا تهويل. وهذه غير قابلة للتطور أو التغير.

وتتمثل الثوابت كذلك في (العبادات) التي فرضها الله على عباده مثل الشعائر الركنية الأربع التي تمثل أركان الإسلام، (الصلاة والزكاة والصيام والحج) وما يكملها من نوافل تقرب المرء من ربه.

فهذه العبادات ثابتة باقية، لا يدخل عليها تطوير ولا تغيير في جوهرها وأصولها، فهي من الثوابت الخالدة في رسالة الإسلام لا تختلف باختلاف الزمان والمكان.

ومن الثوابت القيم الأخلاقية العليا، وأمهات الأخلاق العملية التي تحدد علاقة الإنسان بربه كالإخلاص له والرجاء في رحمته والخوف من عقابه، وعلاقته بنفسه مثل النظافة والعفة والحياء والصبر والشجاعة والعزة ومحاسبة النفس، وتحدد علاقته بأسرته مثل الرعاية لحقوق الزوجية، وحقوق البنوة، وبر الوالدين وصلة الرحم، وتحدد علاقته بالمجتمع مثل قول الصدق، وإنجاز الوعد، والوفاء بالعهد، ورعاية الأمانة، ورحمة الصغير، وتوقير الكبير، والعدل مع الصديق والعدو، والبر بالناس، وفعل الخير للجميع.

وفي الجنب السلبي – أمهات الرذائل التي حذر الإسلام منها أشد التحذير مثل: القتل والسرقة والزنى وشرب الخمر، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والحسد والبغضاء والكبر والرياء وعقوق

الوالدين وقطيعة الرحم، وشهادة الزور، والكذب والغيبة والنميمة والخيانة وسوء الظن والغدر والقسوة والظلم. فكل هذه حرام بل من أكبر المحرمات عند الله.

ومن الثوابت (الأحكام القطعية) في شؤون الفرد والأسرة والمحتمع والحكم والخلافات الدولية، التي ثبتت بالنصوص القطعية وأجمعت عليها الأمة÷ واستقر عليها الفقه، مثل: إباحة الطلاق، وتعدد الزوجات، بما يتبعها من قيود وشروط، وإيجاب النفقة على الزوج، وتوريث الأولاد: للذكر مثل حظ الأنثيين. ومثل شرعية الملكية الفردية، وحل البيع وحرمة الربا، وإيجاب الرضا في العقود، والوفاء بها، وجواز الرهن، والوكالة والحوالة ونحوهما من العقود، ووجوب إقامة الحدود – بشروطها – على المرتكبين جزاء لها، والتعزير في كل معصية لا حد فيها ولا كفارة الخ.

فهذا النوع من الأحكام يمثل (الوحدة الفكرية والشعورية والسلوكية) للأمة، على اختلاف البيئات والأقطار، وتغير الأعراف والعصور.

المتغيرات المتجددة:

فيما عدا هذه الثوابت الراسيات، نجد جل أحكام الشريعة قابلة للاجتهاد وتعدد الأفهام. والواقع أن المجتهد ابن زمانه وبيئته، ولا بد أن يتركا بصماتهما على تفكيره، شاء أم أبى. كما أن الواقعة نفسها حدث متأثر بزمانه ومكانه، من حيث وقعها على الأنفس وتأثيرها في الناس. فلا عجب أن تتغير الأحكام التي ثبتت بالاجتهاد، بتغير الزمان والمكان والعرف والحال، وهي الموجبات التي تؤثر في اجتهاد المجتهد، فتوى المفتي وقضاء القاضي.

وضرب الشيخ عددا من الأمثلة لاختلاف الحكم باختلاف البيئة والعرف، والزمان والمكان. منها أن معيار نصاب الزكاة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم كان الذهب والفضة، وقد حدث تغير جذري في قيمتهما في زماننا بحيث يتحول صاحب النصاب بالدراهم الفضية فقيرا إذا ما قورن بصاحب النصاب بالدنانير الذهبية. ولذا يرى أن نجعل المعيار في نصاب الزكاة الذهب، لا الفضة.

والإسلام بهذه المرونة في الوسائل والأساليب يتسق مع طبيعة الحياة الإنسانية خاصة، ومع طبيعة الكون الكبير عامة. فقد جاء هذه الدين مسايرا لفطرة الإنسان، وفطرة الكون. وبهذه

المزية يستطيع المجتمع المسلم أن يعيش ويستمر ويرتقي، ثابتا على أصوله وقيمه وغاياته، متطورا في معارفه وأساليبه وأدواته.

ثالثا: **التحذير من اتجاهات التجميد والتمييع والتجزئة للإسلام:**

ومما يميز تيار الوسطية وقوفه عند خط الاعتدال بين المفرطين والمفرطين، والتنبه – والتنبيه أيضا – إلى وجوب الحذر من الاتجاهات المنحرفة – عن جهل أو عمد – في تفسير الإسلام، والتي تنتهي تحريف الإسلام عن حقيقته، كما أنزله الله على رسوله، وأشد هذه الاتجاهات خطرا ثلاثة:

١) من هذه الاتجاهات ما يعمل على تجميد الإسلام وصبه في قوالب حجرية، لا تقبل المرونة ولا تسمح بالتغير، ولا تتسع لتفتح أي حوار.

يمثل هذا الاتجاه صنفان متناقضان:

أ – صنف يتمسك بأقوال الأقدمين من أئمة المذاهب وأتباعهم لا يحيد عنها ولا يرضى بها بديلا، رافضا كل اجتهاد جديد أيا كان صاحبه، ومهما كانت الحاجة إليه. فلا يقبل هؤلاء اجتهادا انتقائيا ولا إنشائيا، ظنا منهم أن كتب الأقدمين تحوي كل شيء.

وهذا الصنف لا يمثل تيارا بارزا في قلب الصحوة الإسلامية، وإن كان يمثل تيارا كبيرا في قلب الأمة الإسلامية.

ب – صنف يدعي التمسك بالنصوص، وخصوصا من السنة، رافضا أقوال المتقدمين والمتأخرين، جاعلا من نفسه مذهبا خامسا يحكم على المذاهب كلها، ولا تحكم عليه! يقول عن الأئمة العظام والصحابة الكرام: هم رجال ونحن رجال!

وكثيرا ما يغفل هؤلاء عن طبيعة النصوص الجزئية ودلالاتها ملابسات ورودها: أهي عامة ام خاصة، مطلقة أم مقيدة، محكمة أم منسوخة، ثابتة أو متغيرة، موجبة أو مخيرة، أصلية أم فرعية، قطعية أم ظنية؟

وقد انتهى الجمود على بعض النصوص الجزئية دون ربطها بغيرها من النصوص والقواعد الكلية بأناس من هذا الصنف إلى ما انتهى إليه الخوارج من قبل، فسقطوا في هاوية تكفير أهل القبلة، وإخراج الناس من الملة بالجملة.

ولو نظروا إلى القضية نظرة شاملة متوازنة، وقابلوا النصوص بعضها ببعض، وردوا الشبهات إلى المحكمات، والجزئيات إلى الكليات، لاتضحت لهم الرؤية، وسلم حكمهم من الغلو المهلك، ولم يقعوا في خطيئة تكفير المسلم.

إن الإسلام لا يسمح ببابوية تصدر ضد الناس قرارات الحرمان أو تمنحهم صكوك الغفران!

٢) **الاتجاه إلى تمييع الإسلام:**

هذا الاتجاه المتشدد (تجميد الإسلام) تقابله اتجاهات متعددة أخرى، تشترك كلها في القصد إلى (تمييع الإسلام) وتفريغه من مضامينه الثابتة، وأحكامه الخالدة. فهناك اتجاه يمكن أن نسميه "تنصير الإسلام" أي تفسيره تفسيرا يذيب الفوارق بينه وبين النصرانية، يسوي بين التوحيد والتثليث، وبين القرآن المحفوظ والإنجيل المحرف، ويزعم أن الجميع مسلمون: هذا مسلم عبد الله بشريعة محمد، وذاك مسلم عبد الله بشريعة المسيح، واليهودي أيضا مسلم، فقد عبد الله بشريعة موسى! ومما يدخل في هذا الاتجاه: الحملات المنكرة على خصائص الإسلام في أحوال الأسرة، من إباحة الطلاق، وتعدد الزوجات، والمحاولات المتكررة هنا وهناك لمنعهما، وتحريم ما أحل الله، تأثرا بالأفكار الغربية النصرانية.

وهناك اتجاه يعمد إلى تفسير الإسلام تفسيرا ماركسيا، مستغلا ما في الإسلام من تقييد للملكية، وإنصاف للطبقات الكادحة، وحرب على السرف والترف والشح وحرص على تنمية الإنتاج، وعدالة التوزيع وإقامة تكافل اجتماعي يشمل فئات المجتمع كلها.

هناك اتجاه ثالث مقابل للاتجاه الثاني ومضاد له، وهو تفسير الإسلام تفسيرا يجعله أقرب إلى الرأسمالية، مستغلا ما في الإسلام من عناية بحرية الفرد وحقوقه ورعاية حوافزه الذاتية، وإباحة الملكية الفردية، وما يتبعها من التفاضل في الأرزاق والتفاوت بين الأفراد والطبقات.

ويكفي للرد على كلا الاتجاهين السالفين وإثبات فساد دعواهما: أن كلا منهما ينقض الآخر، ولا يمكن أن يكون الإسلام فرديا وجماعيا، رأسماليا واشتراكيا في آن واحد، ولكن الإسلام حوى أفضا ما في المذهبين العالميين، وتنزه عن مساوئهما. وهو على كل حال أسبق منهما زمنا، وأرسخ قدما، فلا يجوز أن ينسب المتقدم إلى المتأخر.

والحق أن الإسلام منهج متميز بذاته، ولا يوصف إلا بأنه الإسلام. وقد يتفق مع هذا المذهب أو ذاك في أصل أو أكثر من أصوله، ولكنه مستقل عنها تماما في أهدافه وطرائقه، وفي مقوماته وخصائصه، وفي أنواع أحكامه، ومصادر إلهامه وإلزامه.

ويسأل الشيخ هؤلاء الراقعين الذين يرقعون الإسلام بقطعة من الاشتراكية أو قطعة من الديمقراطية: لماذا لا تدعون إذن إلى الإسلام نفسه؟ لماذا تدعون الأصل وتدعون إلى الفرع؟

٣) **اتجاه تجزئة الإسلام:**

ثالث هذه الاتجاهات هو الاتجاه إلى تجزئة الإسلام، وتقطيع أوصاله. فالإسلام منهج كامل لحياة البشر، مادية وروحية، فردية واجتماعية، دينية ودنيوية، مثالية وواقعية، فلا بد أن يؤخذ الإسلام كله كما أمر الله عقيدة وعبادة وأخلاقا ومعاملة، وتشريعا وتوجيها وتنظيما.

فهناك من يريد الإسلام مجرد عقيدة نظرية بلا عبادة ولا عمل، وحسبك أن تنطق بالشهادتين لتأخذ صكا بدخول الجنة والنجاة من النار. ومنهم من يريده عبادة بلا أخلاق، أو أخلاقا بلا تعبد، برغم قول الله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)، وقول الرسول (ص) إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. ومنهم من يريده عقيدة وعبادة وأخلاقا، ولا يريده تشريعا ولا نظاما للحياة.

إنه مسلم في المسجد يؤدي فرض الله ويقرأ كتاب الله، ولكنه إذا خرج من المسجد تعامل بالربا الذي حرمه الله، ويحتكم إلى محاكم تقضي بغير ما أنزل الله، واعتنق أفكارا مضادة لما شرع الله. إنه في المسجد ديني، وفي خارج المسجد علماني، يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض.

لقد كان الغالب على الناس في العصور الماضية الزيادة في الإسلام بالإحداث والابتداع وإضافة ما ليس من الدين إليه، والتقرب إلى الله بما لم يشرعه، ودخل في دين الله بدع ما أنزل الله بها من سلطان ولا قام عليها من برهان. وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

أما هذا العصر فمحنة الإسلام فيه تتمثل فيمن يريدون أن يحذفوا منه ما هو من صلبه، ومن مقوماته ومن خصائصه. ولا غرو أن قامت في الهند نحلة جديدة تحت شعار نبوة زائفة، كل همها أن تحذف من الإسلام فريضة الجهاد في سبيل الله، ليبقى الإسلام ضعيفا أعزل بلا حول

ولا قوة، ويعيش المسلمون تحت سلطان الكفار، يطيعونهم ولا يعصون، ويستسلمون ولا يقاومون، لأن طاعة أولي الأمر واجبة ولو كانوا كفارا غاصبين!

وقام في بعض بلاد المسلمين من يفصل بين الإسلام والحكم، وينادي به دينا بلا دولة، وعقيدة بلا شريعة، وقرآنا بلا سلطان!

إن الإسلام في عقائده وعباداته وأخلاقياته وتشريعاته، وحدة مترابطة لا يقبل التجزئة، ولا يجوز أخذ بعضها وترك بعض، فإن الذي شرعها واحد وهو الله تعالى الذي أمر بطاعته فيها.

رابعا: **تتميز الوسطية بفهمه الشمولي للإسلام**، لذا ينبغي أن يهتم بالأبعاد الخمسة التالية:

شعبة تتجه إلى النفس فتصلحها بالتزكية وهذا هو البعد الإيماني.

وشعبة تتجه إلى المجتمع فتصلحه بالعدالة وهذا هو البعد الاجتماعي.

وشعبة تتجه إلى الحكم فتصلحه بالشورى وهذا هو البعد السياسي.

وشعبة تتجه إلى النظم فتصلحها بالتشريع وهذا هو البعد التشريعي.

وشعبة تتجه إلى الحياة فتصلحها بالحضارة وهذا هو البعد الحضاري.

البعد الإيماني:

فأما البعد الإيماني فهو أساس البناء كله، فالمجتمع لا يصلح إلا بصلاح الأفراد، والأفراد لا يصلحون إلا بصلاح الأنفس، والأنفس لا تصلح إلا بالتزكية (قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها)(الشمس:٩،١٠). والعامل الأساسي في التزكية هو الإيمان بالله، واليوم الآخر. هو التوحيد الذي يجعل المؤمن يتعالى على متاع الدنيا وزينتها، لأنه يوقن أن ما عند الله خير وأبقى. وهو الذي يمنح صاحبه الثقة والقوة، فلا يهن ولا يضعف ولا يستكين مهما نزل به من المحن والشدائد.

والإيمان ليس مجرد معرفة ذهنية تنير العقل بما تكشف له من حقائق الوجود الكبرى: الله، الوحي، الإنسان، والحساب، والجزاء.

إنه أعمق من ذلك وأوسع مدى، إنه نور يضيء العقل، ويقين يغمر القلب، ومثل تحفز الإرادة، وضمير يوجه السلوك. أجل، إنه اعتقاد بالجنان، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان.

إن البعد الإيماني ليس مجرد بعد روحي. إنه كذلك بعد أخلاقي، وبعد بطولي، وبعد يجعل الإنسان لسان صدق، وشعاع هدى، وينبوع خير ورحمة للعالمين.

البعد الاجتماعي:

وأما الشعبة الثانية فهي تتجه إلى المجتمع، لتقيم فيه العدل، ويزيل الظلم والبغي، وتعطي كل ذي حق حقه.

وأشد أنواع الظلم ظلم الأقوياء للضعفاء، ظلم الأغنياء للفقراء، ظلم أرباب العمل للعاملين. أن يوجد في المجتمع من يضع يده على بطنه يشكو عضة الجوع، وبالقرب منه من يضع يده على بطنه أيضا يشكو زحمة التخمة!

إن الإسلام لا يدع هذه الفوارق تتسع، بل يتدخل – بقوانينه ووصاياه، بوازع السلطان ووازع القرآن – للحد من طغيان الأغنياء، والرفع من مستوى الفقراء، وتحقيق الكفاية التامة لكل من يعيش في ظل دولته، مسلما كان أو غير مسلم، عن طريق تيسير العمل الملائم له إن كان قادرا، وعن طريق الكفالة من المجتمع والدولة إن كان عاجزا، أو كان قادرا ولم يجد عملا مناسبا أو كان دخله من عمله لا يتمم كفايته من مطالب الحياة.

ومن الجانب الآخر حرم الإسلام على الأغنياء السرف والترف والربا والكنز، واعتبر المال الذي في أيديهم مال الله، وهم مستخلفون فيه، وفرض عليهم فيه حقوقا مؤكدة، الزكاة أولها وليست آخرها.

والإسلام مستعد لتجييش الجيوش وإعلان القتال لانتزاع حق الفقراء من براثن الأغنياء، كما فعل الخليفة الأول الصديق رضي الله عنه.

لقد كان من روائع الإسلام، بل من معجزاته الدالة على أنه دين الله حقا: أنه سبق الزمن، وتخطى القرون، فعني – منذ خمسة عشر قرنا مضت – بعلاج مشكلة الفقر والحاجة، ووضع الفقراء والمحتاجين، دون أن يقوموا بثورة، أو يطالبوا – أو يطالب لهم أحد – بحياة إنسانية كريمة، بل دون أن يفكروا هم مجرد تفكير في أن لهم حقوقا على المجتمع يجب أن تؤدى، فقد توارث هؤلاء على مر السنين والقرون أن الحقوق لغيرهم، أما الواجبات فعليهم!!

وكانت عناية الإسلام بهذا الأمر أن جعله من خاصة أسسه، وصلب أصوله، حين فرض للفقراء حقا ثابتا في أموال الأغنياء يعطى طوعا بدافع الإيمان، وإلا أخذ كرها بقوة السلطان.

البعد السياسي:

أما الشعبة الثالثة، فهي التي تقرر الشورى قاعدة للحكم في الإسلام، ولا بد لنا من التأكيد على هذه القاعدة الإسلامية الجليلة، التي اعتبرها القرآن أحد مقومات المجتمع المسلم ووضعها بين الصلاة والإنفاق مما رزق الله، وهما من أركان الدين.

يقول تعالى في وصف مجتمع المؤمنين في القرآن المكي: (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون) (الشورى:٣٨)

إن الإسلام جعل أمر الأمة بيدها، فهي التي تختار إمامها وحاكمها عن اقتناع، وتبايعه عن رضا، حين تجد فيه تحقق الشروط، وتكامل الأوصاف العقلية والنفسية والخلقية والعملية اللازمة لقيادة الأمة، وقد أفتى الإمام مالك(ر) بأن من بايع إماما وهو مكره، فإن بيعته باطلة، لأن شرط البيعة توافر الحرية والاختيار.

والإمامة في الصلاة مثال مصغر لإمامة الأمة في الحياة، وقد علم الإسلام المأمومين أن يصححوا للإمام إذا أخطأ، ويذكروه إذا نسي، حتى يردوه إلى الصواب.

البعد التشريعي:

والشعبة الرابعة من شعب الإسلام تتجه إلى الأنظمة والعلاقات، فتصلحها بالتشريع الذي يحقق العدل، ويقيم الموازين القسط. بل ما بعث الله الرسل، ولا أنزل الكتب إلا ليقوم الناس بالقسط، كما بين ذلك القرآن.

ولهذا قال الإمام ابن تيمية: لا بد للناس من كتاب هاد، وحديد ناصر، يعني أن الكتاب يمثل الحق، والحديد يمثل القوة، ولا تستقيم الحياة إلا بهما.

وللشريعة الإسلامية خصائص تميزها عن كل الشرائع والأنظمة، سواء أكانت دينية أم وضعية. فهي شريعة ربانية، لأن مصدرها الأساسي وحي الله في كتابه، وعلى لسان رسوله، فهي تشريع عليم حكيم، بر رحيم، خلق الإنسان وهو أعلم بما يصلحه ويرقى به فردا ومجموعا(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).

وهي شريعة رب الإنسان من أجل الإنسان، وهي شريعة واقعية، ترعى حاجات الإنسان، ولا تغفل الأعذار والظروف، لهذا كان من أوصاف رسولها (يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم).

وهي شريعة منطقية لأن أحكامها معللة مفهومة، وهي شريعة خالدة متجددة معا، تجمع بين الثبات والمرونة، خالدة في أصولها وكلياتها، متجددة في فروعها وجزئياتها.

الصحوة وتطبيق الشريعة الإسلامية:

إن مما يميز الصحوة الإسلامية المعاصرة تعالي صيحاتها للمطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية. فلم تعد همسا في المجالس أو حديثا عارضا في الأندية والحلقات، بل دويا هائلا، تردده، وتتجاوب به الآفاق في جهات الدنيا الأربع. ولم يعد بإمكان أحد أن يتجاهل هذا المطلب الشعبي، الذي يكاد يحوز الإجماع لو استفتي الشعب عليه. ومن حق الشعوب الإسلامية أن تطالب بالرجوع إلى شريعة ربها، وأحكام دينها، لتحل محل القوانين الوضعية الدخيلة التي فرضت عليها بقرارات فوقية منذ دخول الاستعمار الغربي إلى ديار المسلمين.

وللتيار الوسطية الإسلامية بعض الملاحظات الأساسية يجب اعتبارها في هذا الصدد.

(١) أن ما تريده الصحوة الإسلامية أكبر من مجرد تعديل مواد القوانين الوضعية بمواد إسلامية، فالقانون وحده، لايبني المجتمعات، ولا يحيي موات الأمم ولا ينفخ الروح في الشعوب الهامدة، إنما تصنع ذلك العقائد والقيم والأخلاق. ولهذا ينكر الإسلاميون الواعون حصر الدعوة إلى الإسلام في الجانب القانوني، وحصر الجانب القانوني في تنفيذ الحدود والعقوبات، وكأن الإسلام كله لخص في قطع يد السارق، وجلد الزاني والقاذف والسكير! وهذا ليس أهم ما في الإسلام ولا أول ما يطلب في الإسلام.

إن الإسلام عقيدة سليمة، وعبادة خالصة، وخلق قويم، وعمل صالح وعمارة للأرض، ورحمة للخلق، ودعوة إلى الخير، وتواص بالحق، وتواص بالصبر، وجهاد في سبيل الله. وهو تشريع وقانون ينظم العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فلا يجوز أن يطغى الجانب التشريعي على غيره من جوانب التربية والتوجيه التي تشمل سائر مجالات الحياة. نعم، إننا نريدها حياة إسلامية متكاملة، توجهها عقيدة الإسلام وتسودها مفاهيم الإسلام تحركها قيم الإسلام، وتقودها أخلاق الإسلام، وتحكمها تشريعات الإسلام.

(٢) أن الشريعة لا يمكن تطبيقها إلا إذا قام على تطبيقها أناس يؤمنون بقدسيتها، ويتعبدون لله بتنفيذها، وهذا يجعلهم يحرصون على فهمها فهما دقيقا، وعلى فقه أحكامها مقاصدها فقها

عميقا ويتفانون في تذليل العقبات أمامها، كما يحرصون على أن يكونوا صورة طيبة لمبادئها، لأن الرسالات الكبيرة تحتاج إلى حراس أقوياء من رجالها وأنصارها، هم المسؤولون الأوائل عن وضع قيمها وتعاليمها.

(٣) أن تطبيق الشريعة ليس عمل الحكام وحدهم، وإن كانوا هم أول من يطالب به، باعتبار ما بأيديهم من السلطة تمكنهم من القيام به. ومع هذا إن على الشعب مسؤولية كبيرة في تطبيق الشريعة في كثير من الأمور التي لا تحتاج إلى سلطان الدولة وتدخل الحكام. فإن من الحلال والحرام وشؤون الأفراد والأسرة أمورا كثيرة لا تستقيم إلا بجهود الشعب أفرادا وجماعات. ويجب على الدعاة تنبيه الشعوب عن واجبهم في تطبيق ما يخصهم من الشريعة.

(٤) التدرج في التشريع سنة من سنن الله في خلقه، وشرعه، والنفس البشرية في حاجة إلى التدرج حتى يتهيأ لقبول ما لم تألفه. ولهذا يراعى التدرج في تطبيق أحكام الشريعة، غير أن هذا لا يكون تكأة لتأجيل العمل بالشريعة، وتمويت الموضوع بمرور الزمن باسم التدرج والتهيئة.

الإسلام ليس مادة هلامية:

لقد أوهم بعض الذين كتبوا مشككين أو معارضين للدعوة إلى تطبيق الشريعة، أوهموا أن الشريعة المدعو إلى تطبيقها مادة هلامية رجراجة غير محددة، ولا منضبطة، يستطيع كل حاكم أو كل فريق أن يفسرها كما يشاء.

ونقول لهؤلاء: إن الإسلام هو الإسلام غير مضاف إلى أحد إلا إلى من شرعه أو من بلغه. فهو إسلام القرآن والسنة، ولا يرتبط إلا باسم محمد صلى الله عليه وسلم، الذي بعثه الله به بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا.

وهناك دائرة غير ضيقة تمثل الوحدة الاعتقادية، والفكرية، والشعورية والسلوكية للأمة. تلك هي دائرة القطعيات التي أجمعت عليها الأمة بكرا وعملا، ورسخت في عقولها وقلوبها وحياتها على امتداد القرون التي قطعتها هذه الأمة.

هناك قطعيات في العقيدة والفكر، و قطعيات في العبادة والشعائر، و قطعيات في الشرعية والنظم، و قطعيات في الأخلاق والآداب، وكلها مما لا يختلف فيها اثنان ولا ينتطح فيها عنزان كما يقولون.

البعد الحضاري:

أما الشعبة الخامسة فتتجه إلى الحياة كلها لترقى بها وتنقلها من البداوة والتخلف إلى الحضارة والتقدم وهذا هو (البعد الحضاري).

والبعد الحضاري في الإسلام يعني جملة أمور هي مقومات الحضارة:

أولا: العلم الذي هو أساس كل الحضارات، وهو في الإسلام يحتل مكانة كبرى، فطلبه فريضة، والتفرغ له عبادة، والبحث عنه جهاد، وتعليمه قربة، وهو مفتاح الإيمان، ودليل العمل، ونور الطريق، وسبيل الجنة. إنما يخشى الله من عباده العلماء. به يهتدي الضالون، ويتفاضل المهتدون. وقد أشار القرآن إلى أن من أثر العلم: اختصار الزمن، وطي المسافات، وتقريب البعيد، كما في قصة سليمان مع عرش بلقيس.

ثانيا: عمارة الأرض، بكل ما تحمله كلمة عمارة من معان، ويدخل فيها الزراعة والغرس والبناء والصناعات المختلفة التي اعتبر فقهاء الإسلام تعلمها وإتقانها فرض كفاية على المسلمين، على معنى أنهم يسألون عنها مسؤولية تضامنية، فإذا وجد في بلد من يكفي لتغطية حاجاته، وسد ثغراته فقد سلم المجتمع كله من الإثم والحرج. وإلا أثم الجميع.

ومن هنا يكون كل عمل لتنمية المجتمع وزيادة إنتاجه عبادة وقربة إلى الله. فمن زرع زرعا أو غرس غرسا فله بكل ما يؤكل منه صدقة ما ظل الناس ينتفعون به.

ثالثا: المال، باعتبار المال نعمة يجب المحافظة عليها، والقيام بشكرها، وقد سماه القرآن خيرا في آيات كثيرة، فينبغي للمسلم أن يسعى في كسب المال من حله، وإنفاقه في محله، وعدم البخل به على حقه، كما ينبغي أن يعمل على تنميته بعد كسبه.

والقرآن يعتبر المال قواما لحياة الناس، ولهذا نهى عن تمكين السفهاء من المال. ونعم المال الصالح في يد الرجل الصالح، والغني الشاكر خير من الفقير الصابر لأنه يستطيع أن يتصدق وينفق في سبيل الله.

رابعا: الصحة، فتكاليف الدين وأعباء الدنيا لا يقوم بها المرضى والضعفاء، وإنما يقوم بها الأصحاء والأقوياء. والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف.

وقد علمنا الإسلام أن المحافظة على الجسم واجب، وأن حرمانه من حقه في الراحة والطعام والشراب غير جائز، ولو كان في سبيل المبالغة في التعبد. وحرم المسكرات والمخدرات حفاظا على صحة البدن والعقل معا.

خامسا: الاستمتاع بالطيبات والزينة. فالإسلام لا يبالغ في التنفير من الدنيا والتزهيد في طيبات الحياة وزينتها. كما فعلت الأديان الأخرى حيث جعلت الاستمتاع بها يبعد عن الله ويقرب من الشيطان، وقست على الجسم من أجل ارتقاء الروح، حتى اعتبر بعضها القذارة عبادة، والنظافة رجسا من عمل إبليس اللعين!

الإسلام ليس كبوذية الهند، والهندوسية، ولا مانوية فارس، ولا رواقية الإغريق، ولا رهبانية النصارى ولا غيرهم. إنما هو دين الحياة، جاء يجل للناس الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، وينكر على الذين حرموا على الناس طيبات ما أحل الله. ويعتبر القرآن الكريم طيبات الرزق من مظاهر ربوبية الله تعالى، ودلائل قدرته ورحمته. كما اعتبر ذلك من دلائل تكريم الله لبني الإنسان: (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) الإسراء:٧٠.

ويدخل في إطار هذه الطيبات

طيبات المأكل والمشرب: (يا أيها الذين آمنوا لا يحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا) المائدة: ٨٧.

طيبات الملبس والزينة (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا، ولباس التقوى ذلك خير) الأعراف: ٢٦.

طيبات المركب (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة، ويخلق مالا تعلمون)

طيبات المسكن (والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) النحل:٨٠.

طيبات الاستمتاع بالجنس الحلال (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) البقرة: ٢٢٣.

طيبات اللهو والترفيه فإن القلوب تمل كما تمل الأبدان. وتتأكد مشروعية اللهو في المناسبات السارة كالأعياد والأعراس.

مفهوم تجديد الدين في ضوء السنة النبوية الشريفة:

كان من الضروري تحديد مفهوم تجديد الدين، وإزالة الأوهام التي حيكت حوله، وإقناع الجاحدين والمنكرين، وبيان التصور الصحيح لهذه النعمة العظيمة التي ميز الله بها هذه الأمة. فإن الأديان السماوية السابقة انقرضت بانتقال أنبيائها إلى رحمة الله. أما دين محمد صلى الله عليه وسلم فهو باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وهنا نفهم أهمية موضوع التجديد الذي يشكك فيه بعض المتحضرين، وينتقده المستشرقون الذين لا يقصرون في اغتنام الفرص للنيل من الإسلام.

لقد ركز سماحة الشيخ يوسف، كأمثاله من العلماء على الحديث الآتي لبيان النبوءة المحمدية بصدد التجديد والمجددين وأعقبه بشرح واف. نلخصه فيما يلي:

روى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها. والحديث صحيح عند نقاد الحديث مروي عن عدة طرق. فكيف نفهم هذا الحديث؟

وضح الشيخ يوسف في كتابه من أجل صحوة راشدة معنى الحديث والملابسات والمناسبات لظهور هؤلاء المجددين، واختار الرأي الذي يقول بتعدد المجددين وأجاز أن يظهر مجدد في مجال الفقه والعمل وآخر في مجال العقيدة والإيمان وآخر في مجال السياسة والأمور الاجتماعية والاقتصادية، وهكذا.

حلل الشيخ الحديث المذكور تحليلا دقيقا لفظا بلفظ، وبين أنه من نبوءات الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد تحقق العديد من نبوءاته، ولهذا يعتقد المؤمن اعتقادا جازما أن هذا التنبأ أيضا سوف يتحقق في حينه.
وذكر أن الهدف من الحديث زرع الأمل في قلوب المسلمين، وبخاصة عندما تكون الظروف المعادية مسيطرة على الميدان بحيث يفقد الحليم صبره، ويشيب الطفل من شدة الهول. ففي الحديث ما يسلي المؤمن ويساعده على التخلص من اليأس، والتخاذل، ويحثه على مداومة العمل حتى النصر.

وهنا أحب أن أشير إلى نقطة هامة، لم يصرح بها الشيخ ولكن أرجو أن يكون بحثه للموضوع يتفق معها. في هذا الحديث النبوي الشريف إشارة ضمنية إلى أن هذا الدين يكون ملائما لكل زمان ومكان، لأن الله يبعث في الأمة من يجدده في كل قرن من القرون، فالأولويات المناسبة لكل زمان يستنبطها المجدد لهذا الدين ويطبقها في البيئة التي يعيشها المجتمع المسلم. فلا تكون هناك مسألة متجددة إلا وحلها موجود، مستنبط من كتاب الله وسنة رسوله، ومن المتفق عليه أن تأويل الأصول الثابتة في عصر الصحابة كان يختلف حسب الزمان والمكان، ومتغيرات المجتمع المسلم، وسرد الشيخ الأمثلة على ذلك وهي معروفة مشهورة في عصر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب والخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنهما. وإذا أمعنا النظر في تلك الأحكام التي روعي فيها مقاصد الشريعة أصلا ثابتا، نرى أنها ترفع من مكانة الشريعة بحيث تكون قمة في ملائمة الظروف التي تطبق فيها. والأمر لا يختلف في زمن التابعين، وأئمة المذاهب المشهورة، حيث كانوا يراعون المصالح المرسلة إلى جانب مقاصد الشريعة.

ولهذا من الأنسب أن نفسر رأس المائة في الحديث تفسيرا يتفق مع هذه الحقائق. فليس من الضروري أن تكون في بداية السنة، أو نهايتها بالتحديد، وإنما المراد أنه لا يخلو كل قرن من القرون من المصلحين الذين يقومون بتجديد الدين وإحيائه.

ولننقل نص قول الشيخ: "ولم ينف الحديث وجود مجددين في أواسط القرن وأواخره، بل هذا هو الواقع الملحوظ لمن يقرأ تاريخ هذه الأمة، ويجدر أن يعتبر من المجددين أمثال الأئمة: ابن الجوزي، وابن تيمية، وابن القيم، والشاطبي، وابن الوزير، وابن حجر، والدهلوي، والشوكاني وغيرهم من الأعلام." (ص٢٧).

كما نبه الشيخ إلى الاستدلال الخاطئ الذي وقع فيه بعض العلماء لفهمهم الحديث المروي عن أنس (ر) عند البخاري: "لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه"، على إطلاقه. والواقع شاهد على خلاف ذلك. وهناك أحاديث تدل على أن الذين يأتون بعد الصحابة (ر) منهم من هو أوعى منهم، "ورب مبلغ أوعى من سامع". وإنما المراد من الحديث أن الصحابة (ر) يواجهون ظروفا صعبة في

المستقبل، فعليهم أن يستعدوا لتلك الظروف الصعبة ماديا ومعنويا ولا ينبغي أن ينهاروا أمامها. كما نبه إلى أن العمل الإسلامي لا ينتهي بانتهاء قرن من القرون، بل المسلم مطالب بالعمل لدينه دائما.

وبين الشيخ جانبا مهما للتجديد حيث قال:
وقد يقوم بالتجديد والإحياء جماعة أو مدرسة أو حركة: فكرية أو تربوية، أو جهادية، يتواصى أهلها بالحق والصبر، ويتعاونون على البر والتقوى.

وقد يقوم بمهمة التجديد أفراد أو مجموعات متناثرة، كل في موقعه ومجال اهتمامه واختصاصه. هذا في مجال العلم والفكر، وذالك في مجال السلوك والتربية، وثالث في مجال خدمة المجتمع، ورابع في مجال الحكم السياسة، وآخر في مجال الجهاد والمقاومة، وكل على ثغرة من ثغر الإسلام، اتحدت أهدافهم ومبادئهم، وإن اختلفتم مواقعهم وطرائقهم.

وهنا أحب أن أنبه على أمر ينبغي للعاملين للإسلام من الأفراد والجماعات أن يعوه وهو:
إن اختلاف مناهج العمل للإسلام، وتعدد الجماعات العاملة لتجديده، ليس ظاهرة مرضية، ولا أمرا مذموما عنه الله ولا عند الذين آمنوا، بشرط أن يكون اختلاف تنوع وتخصص، لا اختلاف تضاد وتناقض، بمعنى أن يكون هناك تكامل وتناسق وتعاون بين هذه الأنواع من العمل بحيث يكمل بعضها بعضا، ويشد بعضها أزر بعض، وتجمعها القضايا الكبرى، والمواقف المصيرية، لتواجه العدو المشترك صفا واحدا كالبنيان المرصوص، أما أن يحاول كل منهم إثبات نفسه ونفي غيره، ويجعل أكبر همه بناء ذاته على أنقاض العاملين الآخرين، فإنه بذلك يؤدي إلى ضعف القوى الإسلامية كلها، وتآكلها من داخلها كما يفتح ثغرة للعدة المشترك، ليضرب الجميع، وهو آمن مستريح.

هناك نقطتان مهمتان بينهما الشيخ في معرض بيان الحديث، أولا أن التجديد يتم في الأمة المسلمة ولصالحها، وهي خير أمة أخرجت للناس، وينبغي أن يكون التجديد مساعدا على لعب دورهم بين الأمم، كخير أمة أخرجت للناس. والتجديد الكامل هو الذي يغطي مساحة الأمة الإسلامية كلها، ويؤثر فيها جميعا، كما أن التجديد الكامل هو الذي يشمل العلم والعمل معا، كما نرى ذلك في تأثير عمر بن عبد العزيز والشافعي والغزالي ونحوهم.

والنقطة الثانية أن الدين الذي يجدد هو دين الإسلام كما يطبقه المسلمون، وليس كما نزله الله تعالى على محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الدين كما أنزل ليس في حاجة إلى التجديد لأنه ثابت لا يقبل التغيير ولا يحتاج إلى التجديد. أما تطبيق الناس لهذا الدين فهو في حاجة إلى التصحيح والتطوير. ولا يخفى أن إحياء الدين في قلوب الناس أهم من إثبات مبادئه وأحكامه الأساسية في الكتب والمصنفات. فإن دولة الإسلام إذا أقيمت في قلوب المؤمنين تقم في أرضهم، كما قال الشهيد حسن البنا.

وبين الشيخ معنى التجديد بعد سرد الآراء المختلفة فيه:
أن التجديد لشيء ما هو محاولة العودة به إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد، وذلك بتقوية ما وهى منه وترميم ما بلي، ورتق ما انفتق، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى

فلا يعنى تجديد الدين إظهار طبعة جديدة منه، بل يعنى العودة به إلى حيث كان في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ومن تبعهم بإحسان.
وهذه العودة لا تخيف كما يتوهم بعض الناس، إنها في الحقيقة العودة إلى التيسير لا إلى التعسير، إلى التبشير لا إلى التنفير، إلى الاهتمام باللباب لا الوقوف عند القشور.
إن مفتاح التجديد للدين هو الوعي والفهم وبعبارة إسلامية صميمة هو الفقه بمفهومه القرآني والنبوي (كما قال تعالى: فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين)، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين. (حديث متفق عليه).

والفقه في الدين يعني المعرفة التي نحصل عليها بعد دراستنا المتفحصة للإسلام من ينابيعه الصافية، بحيث يفهم فهما سليما، خالصا من الشوائب، بعيدا عن غلو المتطرفين، وتقصير المضيعين، مسترشدين بهدي الجيل الأول الذين كانوا أفهم الناس لمقاصد الإسلام، وأحرصهم على التزامه والعمل به. غير غافلين عما تميز به الإسلام من الشمول والاعتدال والتيسير، مفرقين بين الكليات والجزئيات، والأصول والفروع من الأحكام، مميزين بين ما شأنه الثبات والخلود، وما شأنه المرونة والتغير، مفرقين بين مراتب الأعمال ودرجاتها في ميزان الشرع، حسنات كانت أو سيئات.
ومن أعظم الخطر تذويب الفروق بين هذه المراتب والأعمال، واعتبار الجميع شيئا واحدا، فإن الجمع بين ما فرقه الله كالتفريق بين ما جمعه الله كلاهما لا يجوز.

ونحن في مطلع القرن الخامس عشر الهجري في حاجة إلى تجديد فكري ثقافي واسع عميق، تجديد يعيد للاجتهاد حياته ونشاطه من جديد، والاجتهاد بنوعيه الترجيحي الانتقائي والا بداعي الإنشائي. اجتهاد يضع للمشكلات المعاصرة حلولها من داخل شريعة الإسلام، ويصف لأدواء مجتمعاتنا أدويتها الناجعة من صيدلية الإسلام نفسه، لا من مصنوعات الغرب العلماني أو الشرق الإلحادي.

وهكذا كان موفق الشيخ واضحا جليا في مسألة الاجتهاد. ولكن هذه مسألة زلت فيها الأقدام وضلت فيها الأوهام. فمن العلماء من يرى أن باب الاجتهاد قد أغلق من القرن السادس الهجري، وليس هناك في رأيهم إلا استخراج المسائل الفرعية بالترجيح بين أقوال الأئمة السابقين، الذين يجب على الأمة حسب زعمهم أن تقلدهم وتتبع آراءهم ولا يحق لها أن تحيد عن تلك الآراء إلى رأي جديد. وقد كان هذا التشبث بالتقليد مما فنده الشيخ رشيد رضا بالحجج القاطعة والأدلة الواضحة بعد معركة دامت أحقابا بين مؤيدي التقليد ومعارضيه. غير أن باب الاجتهاد عندما فتح كانت هناك كارثة جديدة، فقد دخل في زمرة المجتهدين كل من هب ودب، وبدأ كل من درس آيات من القرآن أو بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم يكون له رأيه الخاص، وبدأ يستنبط الأحكام في ضوء دراسته، وأجاز لنفسه أن يجتهد. فألف فضيلته كتابا في بيان الاجتهاد الذي يرى العلماء أن بابه مفتوح، والضوابط الشرعية للاجتهاد، والشروط اللازمة توافرها في المجتهد، وما يجوز فيه الاجتهاد وما لا يجوز. فقد كانت مجلة الأمة القطرية أجرت حوارا مع الشيخ في هذا الموضوع الحساس. نلخص ما جاء في هذا الحوار فيما يلي:

في الإجابة عن السؤال هل أغلق باب الاجتهاد في عصر معين؟ ومن المسؤول عن هذا الأمر؟ هل هي الدولة العثمانية؟ قال سماحة الشيخ إن الاجتهاد بدأ منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كما ظهر ذلك في قصة صلاة العصر في بني قريظة، وفي حديث معاذ بن جبل (ر) حين أرسله النبي صلى الله عليه وسلم، إلى اليمن وسأله: بماذا تقضي إن عرض لك قضاء؟ فقال: بكتاب الله، فقال فإن لم تجد؟ قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال فإن لم تجد؟ قال أجتهد رأيي، ولا آلو. فأقره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأثنى عليه. واجتهد عدد من الصحابة في عدد من القضايا في غيبتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم، وبلغه ذلك، فمنهم من أقره ومنهم من صحح خطأه.

وبعد عهد النبي (ص) اجتهد الصحابة (ر) في مشكلات الحياة المتجددة بحلول إسلامية، واجتهادهم في وقائع الحياة وفقهم لدين الله يمثل الفقه الإسلامي الأصيل للإسلام، ويتسم بالواقعية مراعاة المصالح العباد دون تجاوز على النصوص. والناظر في فقه الخلفاء الراشدين، وأم المؤمنين عائشة، وعبد الله بن عباس، وغيرهم (ر) يوقن أن الصحابة كانوا أفقه الأجيال لروح الإسلام. ومن الأمثلة على ذلك اجتهاد عمر (ر) في تقسيم أرض العراق، وموقف عثمان (ر) عن ضالة الإبل، وتضمين علي (ر) للصناع إذا ضاع ما في أيديهم من متاع الناس.

وقد سار على هذا النهج تلاميذ الصحابة من التابعين الذين كونوا مدارس فقهية، ومن هذه المدارس برز مشاهير الأئمة أصحاب المذاهب المتبعة مثل أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، والثوري، والأوزاعي، وداود الظاهري.

وظل الفقه الإسلامي أساس القضاء والفتوى في المجتمعات الإسلامية حتى دخل الاستعمار بلاد المسلمين، وعزل الشريعة عن التقنين والقضاء إلا في دائرة ضيقة هي ما سموه (الأحوال الشخصية). ولم يكن للمسلمين طوال اثني عشر قرنا دستور ولا قانون يتحاكمون إليه غير الشريعة الإسلامية، برغم ما حدث من سوء التطبيق لأحكامها.

والواقع أن سيطرة التقليد والتعصب المذهبي قد استشرت في أقطار العالم الإسلامي بنسب متفاوتة، وإن لم يخل عصر من العصور من مجتهدين، ونجد الإمام السيوطي الذي توفي عام ٩١١ هـ، يعلن أنه بلغ مرتبة الاجتهاد المطلق، ويرجو أن يكون مجدد المائة التاسعة. وفي القرن الثاني عشر ظهر المجدد الكبير أحمد بن عبد الرحيم المعروف باسم: شاه ولي الله الدهلوي، صاحب حجة الله البالغة. وفي القرن الثالث عشر ظهر في اليمن الإمام المجتهد محمد بن على الشوكاني، والذي تجلى اجتهاده في الفروع والأصول في كتبه، نيل الأوطار والسيل الجرار والدراري المضيئة، وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول.
ولدى سؤاله عمن بدأ الاجتهاد في العصر الحديث أجاب الشيخ أن لكل من الأئمة جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا دوره في الاجتهاد، على الطريقة التصاعدية فاللاحق يكون أكثر اتساعا من السابق في دائرة عمله. والشيخ رشيد رضا قد لقي القبول في اجتهاداته وفتاواه في العالم الإسلامي كله.

وأضاف الشيخ أن الاجتهاد فرض كفاية على الأمة، وفرض عين على من أنس في نفسه الكفاية له والقدرة عليه إذا لم يجد في المسلمين من يسد مسده.
ثم بين الشيخ المزالق التي وقع فيها المجتهدون المعاصرون، فشرح أن الاجتهاد إما أن يكون فيما لا نص فيه، أو منطقة النصوص الظنية، سواء كانت ظنية الثبوت أو ظنية الدلالة. أما المنطقة التي يحظر الاجتهاد فيها فهي منطقة القطعيات، مثل الفرائض الأصلية، كالصلاة والزكاة، وتحريم المحرمات اليقينية كالزنى وشرب الخمر والربا، والحدود والقصاص.

ويجب الاحتراس من أن نجتهد فيما لا يجوز فيه، أو أن يدخل باب الاجتهاد من ليس أهلا له، ولا يستكمل شروطه، والذي دعا بعض القدماء أن ينادوا بإغلاق باب الاجتهاد خوفهم من الأدعياء والمتطفلين. غير أن باب الاجتهاد سيظل مفتوحا إلى يوم الدين. ولا يطرأ على البشرية موضوع إلا ويكون فيه حكم للشرع.

أما شروط المجتهد فهي معروفة مفصلة في كتب أصول الفقه.
وأجمل الشيخ الضوابط التي يجب مراعاتها في الاجتهاد المعاصر فيما يلي:
البعد عن منطقة القطعيات، عدم تحويل القطعي إلى ظني أو الظني إلى قطعي، ورفض اجتهاد التبرير للواقع، واجتهاد التقليد للآخرين. يجب أن يتحرر المجتهد من الخوف بكل أنواعه. كما يجب أن نوسع صدورنا للحق الذي يصل إليه المجتهد وإن خالف ما نشأنا عليه من آراء.

على المجتهد أن يعد نفسه لفهم القضايا العصرية، مثل زرع الأعضاء ونقل الدم، وما جد في الأنظمة المالية والاقتصادية مما لم يعرفه السابقون. وكذلك على المجتهد أن يعرف آراء الفقهاء والمجتهدين ويرجح القول حسب الزمان والمكان، وقد يكون من خارج المذاهب الأربعة، لأن الأئمة الأربعة ليسوا كل الفقهاء.

منهج الإمام السيد أبي الأعلى في بيان التجديد:

ويطيب لي أن أذكر في هذه المناسبة أن الأستاذ الإمام السيد أبا الأعلى المودودي ألف كتابا سماه تجديد الدين وإحياؤه، أثار ضجة كبيرة في أوساط العلماء في الهند وباكستان. لأن فهمه وعرضه

للموضوع كان موافقا تماما لما وصل إليه اجتهاد سماحة شيخنا يوسف القرضاوي. وذهب إلى أن الإسلام يبقى جديدا ملائما لكل زمان بخدمة أولائك المصلحين، وأشار إلى أن القرن العشرين الذي تحول فيه الإسلام مجرد طقوس وترهات وخرافات وبدع يتطلب مجددا شاملا يقوم بإحياء الدين، وتجديده في ضوء كتاب الله وسنة رسوله. ورأى أن المجدد كثيرا ما لا يكون معترفا به في زمانه كما حصل لكثير من المجددين مثل شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، والشيخ رشيد رضا، وأستاذه الشيخ محمد عبده وغيرهم. فإذا قضوا نحبهم بعد أداء واجبهم عرفتهم الأجيال القادمة، واحترموا أعمالهم وخدمتهم للدين، واقتدوا بهم فيما ثبت عنهم.

وفي بيان الحديث المروي في الباب يقول المودودي إن العلماء حصروا قدوم المجدد إلى بداية القرن ونهايته، وهذا تفسير خاطئ لكلمة "على رأس كل مائة سنة"، وإنما المعنى أن كل قرن لا يخلو من مجدد يقاوم سيل الجاهلية المنجرف ويعيد الأمة إلى حياض الإسلام، كما أشار إلى أن كلمة "من" في اللغة العربية تستعمل للمفرد والجمع، فيمكن أن يكون هناك أكثر من مجدد، أو تقوم جماعة بمهمة التجديد، كما يجوز أن يقوم بذلك فرد من الأفراد. وليس من الضروري أن يقوم مجدد واحد بهذه المهمة في العالم الإسلامي برمته، بل يجوز أن يكون هناك مجددون في البلدان المختلفة. ويرى الإمام أن كل من قام بالتجديد لا يوصف باسم "المجدد"، لأن هذه التسمية لا تليق إلا بشخصية هامة قام بإنجاز هذه المهمة على أكمل وجه.

ويرى الإمام المودودي أن المجدد الكامل يأتي لتحقيق ما نبأ به الرسول صلى الله عليه وسلم فيما روي عنه: "ثم تكون خلافة على منهاج النبوة تعمل في الناس بسنة النبي"، فيقيم دولة الإسلام في الأرض ويملأها عدلا بعد أن كانت ملئت جورا. وله في آخر الكتاب تقييم نفيس لأعمال التجديد للمجددين في الهند في ضوء الكتاب والسنة ومن وجهة نظر داعية، يبين فيه أسباب نجاح حركات التجديد في الوصول إلى غايتها، وأسباب فشلها في مهمتها.

ويعجبني هذا التوافق بين سماحة الشيخ يوسف القرضاوي والإمام المودودي في تفسير حديث المجدد في كل قرن، وصفات المجددين.

والكلمة الأخيرة في هذا الموضوع كتاب الشيخ " الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، أوجزه لنقف على تصور كامل لترشيد الصحوة الإسلامية لدى الشيخ.

كتاب "الصحوة الإسلامية بين الجحود التطرف" دراسة عميقة للموضوع يسلط الضوء على جميع جوانبه، ويحلل الظروف والأسباب، ويقدم الحلول والمخرج من الأزمة، ويحدد مواقف العامة والخاصة تجاه المشكلة. لننقل للقارئ ملخصا لتلك الأفكار النيرة من الكتاب القيم يساعده على فهم المغزى، ويصور له تلك النظرة الثاقبة إلى صلب الموضوع، والتحليل والصحيح لجوانبه المختلفة، يعالجه معالجة الجراح الماهر للورم الخبيث.

مظاهر التطرف الديني:

بعد بيان الضوابط التي يجب مراعاتها عند تحديد معنى التطرف، الملاحظات التي ينبغي أن تكون في الاعتبار بين الشيخ مظاهر التطرف كما يلي:

١) التعصب للرأي تعصبا لا يعترف معه وجود الآخرين، وحريتهم أن يتبنوا رأيا آخر، واتهام من خالف في الرأي بالجهل واتباع الهوى، ومن خالف في السلوك بالفسوق والعصيان.

والعجيب أن من هؤلاء من يجير لنفسه أن يجتهد في أعوص المسائل وأعمض القضايا، ويفتي فيها بما يلوح له من رأي، ولكنه لا يجيز لعلماء العصر المتخصصين، منفردين أم مجتمعين، أن يجتهدوا في رأي نخالف ما ذهب إليه. يزداد الأمر خطورة حين يراد على الآخرين بالعصا الغليظة، وقد لا تكون من خشب ولا حديد، فهناك الاتهام بالابتداع، والاستهتار بالدين، أو بالكفر والمروق. فهذا الإرهاب الفكري أشد تخويفا وتهديدا من الإرهاب الحسي.

٢) ومن مظاهر التطرف الديني، التزام التشديد دائما، مع قيام موجبات التيسير، وإلزام الآخرين به حيث لم يلزمهم الله، خلافا لقول الله تعالى: يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، (البقرة: ١٨٥) وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا" وقوله: إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته". وما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثما". وقال لمعاذ (ر) لما أطال الصلاة: أتريد أن تكون فتانا يا معاذ؟ وكرره ثلاثا.

٣) ومن مظاهر التطرف كذلك التشديد في غير محله. لقد بعث رسول الله (ص) معاذا إلى اليمن وقال له: إنك تأتي قوما من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هو أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم

أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم (الحديث متفق عليه). فمن التطرف أن يطلب ممن دخل الإسلام من جديد في البلاد الغربية والشرقية بتفاصيل الفروعيات في الدين.

٤) ومن مظاهر التطرف الغلظة في التعامل، والخشونة في الأسلوب، والفظاظة في الدعوة، خلافا لهدي الله تعالى وهدي رسوله (ص). قال الله تعالى: (أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) (النحل: ١٢٥). وقال مخاطبا رسوله ومبينا علاقته بأصحابه: (فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك)(آل عمران: ١٥٩) ولم يذكر القرآن الغلظة والشدة إلا في قلب المعركة ومواجهة العدو (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة) (التوبة: ١٢٣). وفي تنفيذ العقوبات الشرعية على مستحقيها، حيث لا مجال لعواطف الرحمة في إقامة الحدود (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) (النور:٢).

ولما واجه موسى فرعون عرض عليه الدعوة في هذه الصورة الرقيقة: (هل لك إلى أن تزكى، وأهديك إلى ربك فتخشى) (النازعات: ١٨-١٩)

٥) ومن مظاهر التطرف ولوازمه سوء الظن بالآخرين، والنظر إليهم من خلال منظار أسود، يخفي حسناتهم ، على حين يضخم سيئاتهم. والأصل عند المتطرف هو الاتهام، والأصل في الاتهام الإدانة خلافا لما تقرره الشرائع: كل متهم بريء حتى تثبت إدانته. نجد الغلاة دائما يسارعون إلى سوء الظن، بينما القرآن الكريم والسنة النبوية يغرسان في نفس المسلم حسن الظن بعباد الله، فإذا وجد عيبا ستره ليستره الله في الدنيا والآخرة. وإذا وجد حسنة أظهرها وأذاعها، ولا تنسيه سيئة رآها في مسلم حسناته الأخرى، ما يعلم منها وما لا يعلم.

واصل سوء الظن بالناس الغرور بالنفس، والازدراء بالآخرين، ومن هنا كانت أول معصية في العالم معصية إبليس، وأساسها الغرور(أنا خير منه).

٦) ومن مظاهر التطرف الذي يبلغ غايته السقوط في هاوية التكفير، حين يسقط عصمة الآخرين ويستبيح دمائهم وأموالهم، ولا يرى لهم حرمة ولا ذمة، وذلك حين يخوض في لجة التكفير واتهام جمهور الناس بالخروج من الإسلام، أو عدم الدخول فيه أصلا، كما هي دعوى بعضهم، وهذا يمثل قمة التطرف الذي يجعل صاحبه في واد، وسائر الأمة في واد آخر.

هذا ما وقع فيه الخوارج في فجر الإسلام، والذين كانوا من أشد الناس تمسكا بالشعائر التعبدية، صياما وقياما وتلاوة قرآن، ولكنهم أتوا من فساد الفكر، لا من فساد الضمير. زين لهم سوء عملهم فرأوه حسنا، وضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.
وأسرف هؤلاء في التكفير، فكفروا الناس أحياء وأمواتا بالحملة، مع أن تكفير المسلم أمر خطير، فقد شدد النبي (ص) من الاتهام بالكفر، ففي الحديث الصحيح: من قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، فما لم يكن الآخر كافرا بيقين، فسترد التهمة على من قالها، ويبوء بها، وفي هذا خطر عظيم.
ومن دخل الإسلام بيقين لا يجوز إخراجه منه إلا بيقين مثله، فاليقين لا يزول بالشك، والمعاصي لا تخرج المسلم من الإسلام، ما لم يستخف بحكم الله فيها أو ينكره. ولهذا أثبت القرآن الأخوة الدينية بين القاتل المتعمد وولي المقتول المسلم الذي له حق القصاص منه، بقوله: (فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف، وأداء إليه بإحسان) (البقرة: ١٧٨).

وبعد تحليل هذه المظاهر مفصلا بدأ الشيخ في البحث عن أسباب التطرف وبواعثه: قال إن معرفة السبب غاية في الأهمية، ليمكن على أساس معرفته تحديد نوع العلاج، وصفة الدواء، إذ لا علاج إلا بعد تشخيص، ولا تشخيص إلا ببيان السبب أو الأسباب. فهي عدة أسباب وليس سببا واحدا.
ومن الأسباب ضعف البصيرة بحقيقة الدين، وليس المقصود به الجهل المطلق بالدين، بل المعني به نصف العلم، الذي يظن صاحبه به أنه دخل في زمرة العالمين. والحق أن نصف العلم – مع العجب والغرور– يضر أكثر من الجهل الكلي مع الاعتراف، لأن هذا جهل بسيط، وذاك جهل مركب، ولهذا مظاهر عديدة أهمها:

الاتجاه الظاهري في فهم النصوص:

يميل هؤلاء إلى حرفية النصوص دون الوصول إلى فحواها ومعرفة مقاصدها فهم بذلك يعيدون المدرسة الظاهرية من جديد، غير أن أصحاب المدرسة الظاهرية كانوا متعمقين في فهم النصوص، وحفظها بينما هؤلاء سطحيون في فهمها. ومن البديهي أن كثيرا من النصوص تفسر بسبب ورودها، وليس على إطلاقها، فمثلا نهيه صلى الله عليه وسلم عن السفر بالمصحف إلى أرض الكفار كان خوفا من أن يستهين به الكفار، أو ينالوه من سوء. فإذا أمن المسلمون ذلك، فلا مانع أن يصطحبوا المصاحف معهم كما يجري في كافة أنحاء العالم.

وكذلك نهيه صلى الله عليه وسلم المرأة أن تسافر بغير محرم، كان بسبب الخوف على نفسها من الفتنة إن لم يكن معها رجل يحميها. فإذا نظرنا إلى السفر في عصرنا نرى أن مجموعة من المسافرين يرتبطون بموعد طائرة أو باخرة، فلا خوف على واحدة من المسافرات معهم إذا كانت معها نسوة ثقات، أو رجال ثقات يمكن أن يعتمد عليهم. ولما زالت العلة التي هي الخوف تغير الحكم من التحريم إلى الجواز.

الإسراف في التحريم:

ومن دلائل عدم الرسوخ في فقه الدين، الميل الدائم إلى التضييق والتشديد الإسراف في القول بالتحريم، وتوسيع دائرة المحرمات. بالرغم من تحذير القرآن والسنة من ذلك.(ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب: هذا حلال وهذا حرام، لتفتروا على الله الكذب) (النحل: ١١٦).
وكان السلف لا يطلقون التحريم إلا على ما علم تحريمه جزما، فإذا لم يجزم بتحريمه قالوا: نكره كذا، أو لا نراه، أو نحو ذلك.

التباس المفاهيم:

وقد أدى عدم وضوح الرؤية لأصول الشريعة ومقاصد رسالة الإسلام إلى التباس كثير من المفاهيم الإسلامية واضطرابها في أذهان الشباب: مثل مفاهيم الإيمان والإسلام، والكفر والشرك، والنفاق والجاهلية، ونحوها. ففي قول الرسول (ص): لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" المنفي ليس أصل الإيمان، وإنما هو كما الإيمان. وقد فصل الكلام في مثله كثير من علماء السلف.

اتباع المتشابهات وترك المحكمات:

والسبب الأساسي وراء الغلو والانحراف في فهم الدين قديما وحديثا هو اتباع المتشابهات من النصوص، ترك المحكمات البينات، وهذا شأن الذين في قلوبهم زيغ، (فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) (آل عمران: ٧).
واتباع المتشابهات هي التي جعلت طائفة الخوارج قديما تسقط في ورطة التكفير لمن عداهم من المسلمين، وتقاتل علي بن أبي طالب (ر)، وقد كانوا جنودا في جيشه، مستندين إلى أفهام عجيبة، بل

أوهام غريبة في دين الله. لأن عليا (ر) حكم الرجال في دين الله، رددوا كلمتهم المعروفة " لاحكم إلا لله"، معتمدين على ظاهر القرآن الكريم حيث يقول: (إن الحكم إلا لله) (يوسف: ٤٠) وكان رد الإمام علي عليهم بكلمته التاريخية المأثورة: كلمة حق يراد بها باطل!
ذلك أن رد الحكم إلى الله وحده سواء كان حكما كونيا أو شرعيا، بمعنى أن التدبير لله، والتشريع لله وحده، لا يعني إبطال تحكيم البشر في القضايا الجزئية التي يتنازع الناس فيها مادام تحكيمهم في إطار حكم الله وتشريعه. وقد ناقش حبر الأمة عبد الله بن عباس (ر) هؤلاء القوم، وحجهم بما في كتاب الله من صور التحكيم. من ذلك التحكيم بين الزوجين لحل عقدة الخلاف بينهما (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها، إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) (النساء:٣٥).

والسبب الأساسي لهذا الغلو هو الجهل بمقاصد الشريعة، والتخرص على معانيها بالظن من غير تثبت، أو الأخذ فيها بالنظر الأول، ولا يكون ذلك من راسخ في العلم.

ومن أسباب ضعف البصيرة عند هؤلاء أنهم لا يسمعون لمن يخالفهم في الرأي، ولا يقبلون الحوار معه، ولا يتصورون أن تتعرض آراؤهم للامتحان، بحيث توازن بغيرها، وتقبل المعارضة والترجيح.

وكثير منهم لم يتلق العلم من أهله، وشيوخه المختصين بمعرفته، وإنما تلقاه من الكتب والصحف مباشرة، دون أن تتاح له فرصة المراجعة والمناقشة والأخذ والرد، واختبار فهمه ومعلوماته وطرحها على بساط البحث. وغفل هؤلاء الشباب المخلصون أن علم الشريعة وفقهها لا بد أن يرجعوا فيه إلى أهله الثقات، وأنهم لا يستطيعون أن يخوضوا هذا الخضم الزاخر وحدهم، دون مرشد يأخذ بأيديهم، ويفسر لهم الغوامض والمصطلحات، ويرد الفروع إلى أصولها، والنظائر إلى أشباهها.

لماذا أعرضوا عن العلماء؟:

ومن الإنصاف أن نقول إن بعض الشباب إنما اعتمدوا على الكتب، لفقدانهم الثقة بأكثر المحترفين من رجال العلم، وخاصة المقربين منهم من السلطان. فهم عندهم في موضع الاتهام، لأنهم يمالئون الحاكم رغم علمهم بأنه لا يحكم بما أنزل الله، وهم لم يكتفوا بأن يسكتوا عن أن يقولوا للظالم يا ظالم! بل قالوا له ما أعدلك! وما أعظمك أيها البطل!

ولذا قال الشباب إننا لا نجد العلماء الذين نطمئن إلى علمهم ودينهم، وهؤلاء الذين يدورون في فلك الحكام يشرعون حسب رغبة الحاكم، وليس كما أنزل الله. فإذا كان الحاكم اشتراكيا باركوا الاشتراكية وجعلوها عين الإسلام، وإذا كان رأسماليا أيدوا الرأسمالية باسم الإسلام.
دعي أحد العلماء اللامعين إلى ندوة تليفزيونية في أحد الأقطار، تدور المناقشة فيها حول موضوع "تحديد النسل" في نظر الشريعة الإسلامية. وكانت دهشة الرجل المكلف بإدارة الندوة بالغة حين قال له هذا العالم هل تهدف الندوة إلى تأييد التحديد أو معارضته حتى أهيئ نفسي؟

ومن لا يستغرب لقول أحد العلماء المشهورين معلقا على ما حدث لشباب الجماعات الإسلامية في مصر بعد تجميد نشاطهم، وتقديمهم للمحاكمات: لو كان هؤلاء حقيقة أنصار إسلام ما خذلهم الله، ولكن لأنهم ليسوا كذلك هزمهم الله قبل أن يهزمهم البشر! وأية قاعدة هذه التي بنى عليها الشيخ حكمه! وهذا كلام مرفوض، فإن للنصر أسبابا وشروطا، قد لا تتوافر كلها لصاحب الحق، فيتخلف عنه النصر، وقد تتهيأ للمبطل ظروف تمكنه من النجاح إلى حين، يقصر أو يطول. فكأنه لم يقرأ تاريخ الأمم، لقد كان الأنبياء أشد الناس بلاء، وهل كان ذلك لأنهم لم يكونوا على حق؟

ضعف المعرفة بالتاريخ والواقع وسنن الكون والحياة:
ويضاف إلى ضعف البصيرة بالدين ضعف البصيرة بالواقع والحياة وبالتاريخ، وبسنن الله في الخلق. فتجد أحدهم يريد ما يكون ويطلب ما لا يوجد، ويتخيل ما لا يقع، ويفهم الوقائع على غير حقيقتها، ويفسرها وفقا لأوهام رسخت في رأسه، لا أساس لها من سنن الله في خلقه. فهو يريد أن يغير المجتمع كله، أفكاره ومشاعره، وتقاليده وأخلاقه وأنظمته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بوسائل وهمية، وأساليب خيالية، مع شجاعة وجرأة فدائية لا تستكثر تضحية وإن غلت، ولا تعبأ بالموت تقع عليه أو يقع عليها، ولا تهتم بالنتائج أيا كانت ما دامت هيتها لله وهدفها إعلاء كلمة الله تعالى.

ولو رجع هؤلاء إلى السيرة النبوية لوجدوا أن رسول الله (ص) ظل ثلاثة عشر عاما في مكة يدعو ويربي، والشرك ضارب أطنابه عن يمينه وشماله، الكعبة البيت الحرام تحيط بها الأصنام التي بلغت ٣٦٠ صنما، وهو عليه السلام يصلي عند الكعبة ويطوف بها، وتلك الأصنام من حوله، لم يفكر أن يقوم هو وأصحابه بهجمة فدائية لتحطيمها والخلاص منها، لأنه لو فعل لعرض نفسه وأصحابه للهلاك، لعدم تكافئ القوى أو تقاربها، ولم تنته بذلك عبادة الأصنام، فإن عابديها سيقيمون بديلا لها في

اليوم التالي، لأن الوثنية في عقولهم قبل أن تكون في الصنم المعبود. فما لم تتحرر عقولهم من هذا الزور فلن يغني عنهم تحطيم الأوثان شيئا.

ولهذا تركها صلى الله عليه وسلم واشتغل بالدعوة إلى تحرير العقول بالتوحيد، وتطهير القلوب بالتقوى، وإعداد الصف المؤمن لمعركة فاصلة مع قوى الكفر، وتربية أصحابه على الصبر الجميل، والنفس الطويل، حتى يأتي أوان المواجهة مع الوثنية العاتية وهو آت لا محالة.

وكان من الصحابة من يأتونه عليه الصلاة والسلام، مابين مضروب ومشجوج ومجروح، يلتمسون منه أن يأذن لهم بأن يشهروا سيوفهم ويقاتلوا دفاعا عن أنفسهم، فلا يأذن لهم، ويأمرهم بالصبر وكف الأيدي، حتى يأذن الله بالقتال.

ثم جاء أوان الصدام المسلح مع الوثنية الطاغية ومقابلة السيف بالسيف والقوة بالقوة. وإنما تحقق ذلك حين أصبح للنبي (ص) ومن آمن به دار وكيان وسلطان، فكانت السرايا والغزوات، وكان الفتح الأعظم الذي هيأ الله به لرسوله أن يدخل مكة فاتحا، بعد أن خرج منها مضطهدا، وأن يضرب أصنامها برمحه، فتخر ساقطة وهو يقول: (وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا) (الإسراء: ٨١).

وكانت قيادة "جماعة التكفير والهجرة" ترى عدم الاعتداد بالتاريخ الإسلامي، لأنها وقائع غير ثابتة الصحة، لذا يحرم دراسة عصور الخلافة الإسلامية أو الاهتمام بها. وما أخطر هذا الانسلاخ من جماعة المسلمين وروابطهم التاريخية. ومن لم يعرف الظروف التي نزلت فيها الآيات القرآنية كيف يفهمها؟ وهذا سر ما ورد عن عمر(ر) حين قال: إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية.

سنتان من سنن الله:

١) سنة التدرج:

التدرج سنة كونية وهو سنة شرعية كذلك، ولهذا خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام من أيام الله وهو قادر على أن يقول كن فيكون. وكذلك نرى خلق الإنسان والحيوان والنبات كلها تتدرج في مراحل حتى تبلغ نماءها وكمالها.

أما من الناحية الشرعية فقد بدأ الإسلام بالدعوة إلى التوحيد وتثبيت العقيدة السليمة، ثم كان التشريع شيئا فشيئا. فقد فرضت الفرائض وحرمت المحرمات بالتدريج، كما ثابت في فرض الصلاة والصيام والزكاة، وتحريم الخمر وغيرها. ولهذا افترق القرآن المكي والقرآن المدني. وفي هذا المعنى روي عن عائشة (ر) واصفة تدرج التشريع ونزول القرآن: إنما أنزل أول ما أنزل من القرآن سور فيها ذكر الجنة والنار. حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر ولا تزنوا لقالوا: لا ندع الخمر ولا الزنى أبدا. (البخاري).

ومن هنا كان على الذين يدعون إلى استئناف الحياة الإسلامية وإقامة دولة الإسلام في الأرض أن يراعوا سنة التدرج في تحقيق ما يريدون من أهداف، آخذين في الاعتبار سمو الهدف، ومبلغ الإمكانيات، وكثرة المعوقات.

والسنة الثانية متممة للسنة السابقة. وهو أن لكل شيء أجل مسمى يبلغ فيه نضجه وكماله، وهذا ينطبق على الماديات والمعنويات فلا ينبغي أن يستعجل الشيء قبل أن يبلغ أجله المقدر لمثله، فإن الزرع إذا حصد قبل إبانه، والثمر إذا قطف قبل أوانه، لا ينتفع به النفع المرجو، بل قد يضر ولا ينفع.

وكان النبي (ص) يوصي أصحابه بالصبر، ويربيهم عليه. ولما شكا إليه خباب بن الأرت ما يلقى من شدة الأذى في سبيل الإسلام قائلا ألا تدعو لنا ؟ ألا تستنصر لنا؟ قال إن من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، وينشر أحدهم بالمنشار فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون!(البخاري)

غربة الإسلام في ديار الإسلام:

وسبب آخر يعمل عمله في نفسية الإنسان المسلم الملتزم بتعاليم دينه في هذا العصر وخصوصا الشاب أنه يرى المنكر يستعلن، والفساد يستشري، والباطل يتبجح، والعلمانية تتحدث بملء فيها، والصليبية تخطط وتعمل بلا وجل، وأجهزة الإعلام تشيع الفاحشة، وتنشر السوء. يرى النساء كاسيات عاريات، ويرى الخمر تشرب جهارا، وأندية الفساد تجعل من الليل نهارا، يرى المتاجرة بالغرائز على أشدها، من أدب مكشوف وأغان خليعة، وصور فاجرة، وأفلام داعرة. كلها تصب في نهر الفسوق والعصيان، والتعويق عن الإسلام والإيمان.

يرى المسلم هذا في ديار الإسلام، ويرى معها التشريع الذي يجب أن يعبر عن عقائد الأمة وقيمها في صورة قوانين تحرس معنويات الأمة، وتعاقب من يجترئ على حماها هذا التشريع يبارك المنكر، ويؤيد الفساد لأنه لم ينبع مما أنزل الله، بل مما وضع الناس، فلا عجب أن يحل ما حرم الله، ويحرم ما أحل الله، ويسقط فرائض الله، ويعطل حدود الله.

ثم يرى الحكام في ديار الإسلام يوالون ما عادى الله، ويعادون من والى الله، ولا يذكرون الإسلام إلا في الأعياد والمناسبات تمويها على شعوبهم. ومن ناحية أخرى، يرى الظلم الاجتماعي والتفاوت الطبقي الفاحش، أناس تموج خزائنهم بالذهب كما يموج التنور باللهب، وسواد الناس ليس لهم إلا الجيوب التي تشكو الإفلاس، فهي قانعة بالقليل ولكنها لا تجده.

فلا غرو أن تصدم هذه المشكلة بعنف وجدان الجيل المسلم، وتقلق ضميره، حيث يجد الأمم الأخرى تكيف حياتها وفقا لعقائدها وفلسفاتها وتصوراتها عن الدين والوجود وعن الله والإنسان، ويجد المسلم وحده مكتوبا عليه أن يعيش في صراع بين عقيدته وبين واقعه، بين دينه وبين مجتمعه.

وهذا الغليان النفسي لا يظل مكبوتا أبد الدهر، بل لا بد أن يتنفس، معبرا عن نفسه، بصورة أو أخرى. فإن القدر إذا زادت عليها النار فلا بد أن تفور وتتفجر.

الهجوم العلني والتآمر الخفي على الأمة الإسلامية:

أضف إلى ذلك كله ما يلقاه العالم الإسلامي شرقا وغربا وشمالا وجنوبا من هجمة شرسة على أوطانه، ومقدساته، وما يشن على الأمة الإسلامية من حرب لا تخبو نارها، علنية حينا، وخفية أحيانا. حرب اتفقت عليها كل القوى غير المسلمة: يهودية وصليبية وشيوعية ووثنية. وهي تختلف فيما بينها،

ولكن تتفق كل الاتفاق إذا هبت ريح الإسلام في صورة دعوة، أو حركة أو دولة. وتجد كل القضايا من يناصرها ماديا ويدعمها أدبيا إلا القضايا الإسلامية، فإنها لا تجد تأييدا حقيقيا عمليا من هؤلاء ولا هؤلاء. وصدق الله إذ يقول: (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض).

إن أنباء الصباح والمساء تحمل إلى المسلم الغيور ما يزلزل قلبه زلزالا شديدا، وما يعصر قلبه عصرا، وما يكوي كبده بالأسى والحسرة كي النار أو أشد إيلاما عن إخوانه في فلسطين، أو في لبنان، أو في الفلبين، أو في أفغانستان أو في الصومال أو القبرص أو الهند أو غيرها من البلاد التي يعيش فيها المسلمون أقلية مضطهدة، أو أكثرية مقهورة.

وفوق ذلك كله يقرآ الشباب المسلم ويسمع أن هذه المواقف السلبية من قضايا الإسلام داخل بلاده، إنما تصنعها القوى المعادية للإسلام خارج بلاده، وأن حكامه ليسوا إلا أدوات في أيدي الصهيونية، أو الصليبية العالمية، أو الشيوعية الدولية، تحركهم من وراء ستار فيتحركون، وتخوفهم من الانتفاضة الإسلامية الفتية، فيخافون، ثم تدفعهم لضربها فيندفعون!

كل هذا رسخ في أذهان الكثيرين أن هؤلاء الحكام متآمرون مع أعداء الإسلام على إجهاض الصحوة الإسلامية، وضرب الحركات الإسلامية حتى لا تبلغ المسيرة غايتها، ولا يؤتي الزرع أكله.

مصادرة حرية الدعوة إلى الإسلام الشامل:

وسبب آخر من أسباب التطرف هو ما يتعلق بحرة الدعوة إلى الإسلام، والعمل له: فمن المعلوم أن الإسلام لا يكتفي من المسلم أن يكون صالحا في نفسه حتى يبذل جهده في إصلاح غيره.ولهذا كانت فريضة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وكل مسلم في نظر الإسلام مكلف بالدعوة إلى دينه:(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) النحل: ١٢٥، وكل من اتبع الرسول فهو داعية إلى الله كما قال تعالى يخاطب رسوله (قل هذه سبيلي، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) يوسف: ١٠٨.

والإسلام لا يحب للمسلم أن يعمل وحده، فيد الله مع الجماعة، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، والمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، والتعاون على البر والتقوى فريضة دينية، وضرورة حيوية،

فلا غرو أن يكون العمل الجماعي للدعوة الإسلامية واجبا شرعا، لأن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

يؤكد هذا الوجوب أن القوى المعادية تعمل في صورة أحزاب ومؤسسات، فلا بد أن تواجه بمثل أسلوبها حتى لا نبقى في مؤخرة القافلة. فمن أكبر الإثم الذي ترتكبه بعض الحكومات في البلاد الإسلامية مصادرة حرية الدعوة إلى الإسلام باعتباره عقيدة ونظام حياة والوقوف في وجه الداعين إليه.

وكان هذا الضغط على الدعوة والدعاة، والتضييق على العمل الإسلامي- وخاصة العمل الجماعي- من أبرز الأسباب التي تدفع إلى التطرف دفعا، ولا سيما أن الفلسفات والمذاهب الوضعية الأخرى تتمتع بالحرية والمسندة، بلا مضايقة ولا إعنات. وليس معقولا أن يطلق العنان في أرض الإسلام لدعاة العلمانية والمذاهب والفلسفات والأنظمة ويفرض الحظر على الإسلام وحده، وهو صاحب الدار، وتوضع الكمائم على أفواه دعاته وحدهم وهو المعبرون عن سواد الشعب، وعن عقائد الأمة وقيمها.

أحرام على بلابله الدوح حلال للطير من كل جنس؟!

إن الدعوة إلى الإسلام المتكامل عقيدة ونظاما أصبح بضاعة محظورة، سلعة مصادرة في عدد من أقطار الإسلام. والاسلام المسموح به هو الإسلام المستأنس، إسلام الدراويش ومحترفي التجارة بالدين، إسلام عصور التخلف والانحطاط، إسلام الجبرية في الاعتقاد، والابتداع في العبادة، والسلبية في الأخلاق، والجمود في التفكير، والاشتغال بالقشور في الدين، دون اللباب. هذا هو الإسلام المشمول بالرعاية والتأييد من قبل سلاطين الجور، وحكام السوء، حتى العلمانيون اللادينيون منهم.
فماذا يصنع المسلمون الذين يريدون أن يعيشوا وفقا لعقيدتهم وهو يرون الكفر مفروضا، والإيمان مرفوضا؟ والحرام حلالا، والحلال حراما؟ أليست هذه الأوضاع المقلوبة هي التي تنشئ العنف، وتولد التطرف والمغالاة؟

ومن الخير لنا ولديننا ودنيانا أن ندع هذه الطائفة تولد ولادة طبيعية، ونفسح المجال لنموها في جو طلق، بعيدا عن الضغط والمصادرة، وإلا فإنها ستجد لها طريقا آخر، وستكيف نفسها وجوها على غير ما نريد لها.

إن الدعوة إلى الإسلام كالماء القوي الدافق، لا بد أن تجد لها مجرى ولو بين الصخور. وإذا لم تفتح الأبواب والنوافذ أمام هذه الدعوة علانية فلا بد أن تبحث لها عن سراديب تحت الأرض، حيث سود الظلام، وتلتبس الرؤية، ويجد الغلو طريقه إلى الأنفس والعقول، دون أن تجد من يصوب لها خطأها ويردها إلى سواء السبيل.

اللجوء إلى العنف والتعذيب لا يقاوم التطرف بل تخلقه:

وتبلغ الأسباب هنا منتهاها حين تلجأ السلطات إلى استخدام العنف والتعذيب البدني والنفسي، داخل السجون والمعتقلات التي يساق الناس إليها بالسياط، ويعاملون فيها أدنى مما تعامل الحيوانات في الحظائر. ولقد لقي المتدينون خاصة داخل تلك السجون من ألوان الإيذاء والعذاب ما تقشعر من ذكره الا بدان، وما تشيب من هوله الولدان. لقد شويت الأجسام الغضة بالكرابيج شيا، وكويت بالنيران والسجائر كيا، علق الرجال – والنساء أحيانا– من أرجلهم كما تعلق الذبائح يتناوبهم الجلادون واحدا تلو الآخر، كلما تعب أحدهم من طول الجلد أراحه آخر، حتى يصير الجسم كومة من الدم والقيح والصديد، وكم من دعاة سقطوا شهداء تحت العذاب، لم يرق لهم ولم يعبأ بهم القساة الجبارون، الذين لم يخشوا خالقا، ولم يرحموا مخلوقا.

لقد استخدموا كل ما عرفوا مما وصلت إليه النازية والفاشية والشيوعية وزادوا على ذلك أساليب ابتدعوها في إيذاء الا بدان، وتعذيب النفوس وغسل الأمخاخ، وإهدار الآدمية!
في داخل هذا الأتون المحمى لتعذيب البشر ولد التطرف، ونبتت فكرة "التكفير" ووجدت في هذا الجو اللاهب عاملا مساعدا على الاستجابة لها.

لقد بدأ هؤلاء بسؤال بسيط لأنفسهم: لم كل هذا العذاب يصب علينا؟ وأي جريمة اقترفناها إلا أن قلنا ربنا الله، ومنهجنا الإسلام، ودستورنا القرآن؟ وانتقلوا من هذا السؤال إلى سؤال آخر: هؤلاء الوحوش الذين ينهشون لحومنا، ويدوسون إنسانيتنا، ويسبون ديننا، ويسخرون من صلاتنا وعبادتنا، ويجترئون على ربنا، هل يعدون مسلمين؟ وأين الكفر إذن، إذا كان هؤلاء مسلمين؟ لا هؤلاء كفار خارجون عن الملة، لا دين لهم.

ثم انتقلوا إلى سؤال آخر: إذا كان هؤلاء كفارا فما حكم سادتهم الذي يأمرونهم ويصدرون إليهم القرارات؟ الذين يحاربون بكل شدة كل من يدعو إلى الحكم بما أنزل الله؟ فهم أشد كفرا، وأصرح ردة، وحسبنا فيهم قول الله تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولائك هو الكافرون) المائدة: ٤٤.
وبعد هذا انتقلوا إلى سؤال آخر: توجهوا به إلى السجناء: ما قولكم في هؤلاء الحكام الذين لم يحكموا بما أنزل الله؟
فمن وافقهم على تكفيرهم فهو منهم. ومن خالفهم أو توقف في الأمر فهو كافر مثلهم، لأنه شك في كفر الكافر. ولم يقفوا عند هذا الحد، فقد انتقلوا إلى سؤال خامس: هذه الجماهير التي تطيع هؤلاء الحكام وتخضع لهم، وهم يحكمون بغير ما أنزل الله، ما حكمهم؟ وكان الجواب حاضرا: إنهم كفار مثلهم، فقد رضوا بكفر هؤلاء الحكام وأقروه وصفقوا له. والرضى بالكفر كفر!
إنها سنة الحياة المشاهدة المجربة: إن العنف لا يولد إلا عنفا، وشدة الضغط لا يكون من ورائها إلا الانفجار.

في سبيل العلاج:

بقي علينا أن نبحث عن العلاج، وطرائقه، وعمن يقوم به!
إن العلاج لا ينفصل عن الأسباب، فإذا كانت متعددة متنوعة، فلا بد أن يكون العلاج كذلك متعددا متنوعا.
والمشكلة عويصة لا تحل في ليلة وضحاها، وليست هناك لمسة سحرية تغير المتطرف إلى المعتدل!
فإذا كان من الأسباب ما هو فكري، وما هو نفسي، وما هو اجتماعي، وما هو سياسي فإن العلاج ينبغي أن يكون كذلك، فكريا، ونفسيا، واجتماعيا، وسياسيا، وأن يكون ذلك كله من منطلق الإسلام، وفي ضوء تعاليم الإسلام، لأن الظاهرة في أساسها دينية.

كما لا يجوز أن نحمل الشباب وحدهم عبء المسؤولية، ونعفي المجتمع والحكم وأجهزته المختلفة، وخصوصا المسؤولين عن التربية والتوجيه والإعلام، فهذا ليس من العدل. إذن المسؤولية مشتركة، وكل له دوره "كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته". فماذا على المجتمع أن يفعل؟ وماذا يجب على الشباب أن يفعلوه ليقاوموا النزعة إلى الغلو وما يترتب عليها من آثار؟

دور المجتمع:
يبدأ دور المجتمع من نقطة مهمة، هي أن يعترف هذا المجتمع بانتمائه للإسلام، وما يقتضيه هذا الانتماء من التزام وسلوك، فالإسلام ليس مجرد دعوى تدعى، ولا شعار يرفع، ولا مجرد نص في الدستور على أن دين الدولة الإسلام، ثم تسير سفينة الحياة بعدها في خط يجافي الإسلام!

إن الإسلام منهج متكامل للحياة، يصبغها بصبغته الربانية، ويوجهها وجهته الأخلاقية، ويضع لها الإطار والمعالم والحدود التي تضبط سيرها، وتربطها بغاياتها، وتقيها الانحراف عن الجادة، أو السقوط في الحفر، أو الشيع في مفارق الطرقات.

ولا بد أن يلتزم المجتمع بالإسلام كله، ولا يكون كمجتمع بني إسرائيل الذين أخذوا ببعض أحكام التوراة، وتركوا بعضها (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) البقرة: ٨٥، ولا بد من الرضى بحكم الله ورسوله في كل شؤون الحياة: اجتماعية، واقتصادية، وسياسية وفكرية. فهذا هو مقتضى عقد الإيمان.

يجب على مجتمعاتنا أن تزيل هذا التناقض الصارخ القائم في حياتنا اليوم بين إيماننا بالإسلام عقيدة وشريعة من عند الله، وبين تجميدنا لأحكامه، وتعطيلنا لحدوده، وإغفالنا لتوجيهاته وآدابه، واستيرادنا لمذاهب وأنظمة من الغرب والشرق بديلا عنه، وبعد ذلك نزعم أننا مسلمون!

عودة الحكام إلى شرع الله:
على حكامنا أن يعرفوا أنهم يعيشون في أوطان الإسلام، ويحكمون أناسا مسلمين، ومن حق كل قوم أن يحكموا وفقا لعقيدتهم، وأن تأتي قوانينهم ودساتيرهم معبرة عن معتقداتهم وقيمهم وتقاليدهم، وأن تصاغ مناهج التربية والتعليم وفقا لها، وأن تسير أجهزة الإعلام والثقافة في اتجاه حمايتها وتثبيتها ونشرها، وأن توضع السياسات الاقتصادية والاجتماعية والداخلية والخارجية في إطارها، وفي خدمة أهدافها.

أما أن يدعوا الإسلام ويرفضوا حكمه، ويعرضوا عن قرآنه وسنة نبيه، ويتنكروا لشعائره وشرائعه، فهذا ما لا يقبله عقل، ولا يرضاه دين. ولقد بلغ تحدي الحكام في أكثر البلاد الإسلامية لضمائر جماهير المسلمين حدا لا يحتمل.

لقد آن لحكامنا أن يعلموا أن لا خلاص لشعوبهم، ولا استقرار لمجتمعاتهم إلا بالإسلام، وكما قال عمر بن الخطاب(ر): نحن كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله". وما لم يحكم الإسلام في حياتنا، فستظل مجتمعاتنا تفرز بين حين وآخر متطرفين دينيين وغير دينيين.

معاملة الشباب بروح الأبوة والأخوة:

والخطوة الثانية في طريق العلاج أن لا نحدث هؤلاء الشباب من فوق أبراج عاجية، مستعلين عليهم أو متبرئين منهم، مما يحفر بيننا وبينهم فجوة واسعة وهوة عميقة، فلا يثقون بنا ولا يستمعون إلينا، كما أننا لا نستطيع بذلك أن نفهمهم، ونعرف أغوار حياتهم، وحقيقة مشكلاتهم.

يجب قبل كل شيء أن نعاملهم بروح الأبوة الحانية، والأخوة الراضية، ونشعرهم أنهم منا، وأننا منهم، وأنهم فلذات أكبادنا، وأمل حياتنا، ومستقبل أمتنا، وبذلك ندخل إليهم من باب الحب لهم، والإشفاق عليهم، لا من باب الاتهام لهم، والتكبر عليهم.

يقول الشيخ من خلال تجاربه واحتكاكه مع هؤلاء الشباب: لمست فيهم إسلاما حيا، وإيمانا متدفقا، وإرادة صلبة في عمل الخير، وجدت قلوبا عامرة بخشية الله وحبه، وألسنة رطبة بذكر الله تلاوة كتابه، وعزائم معقودة على إحياء ما مات من شرائع الإسلام وسننه. رأيت فيهم قوام الليل وصوام النهار، المستغفرين بالأسحار، ولهذا استبشر بهم المستبشرون، وأملوا – وأملت معهم – أن يكون غد الإسلام على أيديهم خيرا.

ترك المغالاة في تصوير التطرف:

علينا أن نكون معتدلين في بيان هذا التطرف الذي اتسم به الشباب. وأول سمات هذا الاعتدال هنا: ألا نبالغ في تصور هذا التطرف المزعوم وتصويره، وفي الخوف والتخويف منه، والمبالغة ضارة كل

الضرر، لأنها تشوه الحقائق، وتقلب الموازين، وتفسد الرؤية الصحيحة وبالتالي يأتي الحكم جائرا أو ناقصا.

فهل من الإنصاف أن ننحي باللائمة، ونصب جام غضبنا على الشاب الذي يعيش للإسلام وبه، محافظا على الصلوات، هاجرا للمنكرات، محصنا فرجه، غاضا بصره، حافظا لسانه، يتحرى الحلال، ويتوقى الحرام حريصا على كل ما يعتقد أنه من أدب الإسلام، ننكر على هذا الشاب الناشئ في طاعة الله مهما يكن متشددا أو متزمتا.... على حين نسكت عن الشباب الذين أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، من المائعين الذائبين الذين لا تكاد تميز الفتى منهم من الفتاة، الذين لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا، ممن فقدوا أصالتهم، ومشوا وراء الغرب، فكرا وسلوكا حذو النعل بالنعل!

هل من الإنصاف أن يتعالى الصراخ ويشتد النكير على ما سمي بالتطرف الديني وأن يلوذ الجميع بالصمت تجاه التطرف اللاديني؟ هل من الإنصاف أن ننكر على الفتاة التي تلبس النقاب ونسخر منها، ولا ننبس ببنت شفة عندما نرى الفتيات الكاسيات العاريات! وهل الحرية الشخصية محصورة في جانب العري والابتذال ومصادرة في جانب التصون والاحتشام؟

ولو أن المجتمع وقف موقفا إيجابيا من المتنكرين للدين والمتحللين من أحكامه وغير ما يراه من المنكر بيده ولسانه، ما وجدت عندنا ظاهرة التطرف في الدين، ولو وجدت لسبب أو لآخر، كانت أخف وطأة مما ظهرت به.

والمتطرفون الدينيون من غير المسلمين في كل بلاد الدنيا يعلنون عن أنفسهم بأقوال وأعمال وتصرفات تتسم بالتزمت أو العنف، ومع هذا لم ينكر العالم عليهم ما أنكره على من سموهم المتطرفين المسلمين، ولم تقف دولهم منهم موقف الدول الإسلامية من هؤلاء!
إننا في عالم يسوده القلق والتمرد نتيجة الموجة المادية التي طغت على تفكير البشر وسلوكهم في هذا العصر. وهذا التمرد والقلق وجد صدى في أوطاننا على صور شتى، بعضها كان تحللا من الدين، وبعضها كان اندفاعا نحو الدين، فقد وجد الكثير من الشباب جوابا لأسئلته في الإسلام، فرجع إليه بقوة، واندفع نحوه بحرارة، واجتمعت حرارة الشباب إلى حرارة الإيمان، فكان لهما لهب يضيء وربما يحرق.

وليس منطقيا أن نتوقع الهدوء في عصر التمرد، ونلتمس الاعتدال في عالم يسوده التطرف، ونطلب حكمة الشيوخ من الشباب المتحمس، والإنسان ابن بيئته وعصره، وكل منهما يفرز من الأحداث والأفكار ما يناسبه، كما أن كل إناء ينضح بما فيه.

افتحوا النوافذ لنسيم الحرية:

علينا أن نضرب صفحا عن تلك الأساليب القديمة البالية التي يفكر فيها دائما رجال المباحث وأجهزة الأمن، وهي أساليب العنف والتعذيب والتصفية الجسدية، وأن نشيع جو الحرية، ونرحب بالنقد، ونحيي روح النصيحة في الدين، ونقول ما قال عمر (ر): مرحبا بالناصح أبد الدهر، مرحبا بالناصح غدوا وعشيا، رحم الله امرءا أهدى إلي عيوب نفسي، وهكذا كان رضي الله عنه يشجع ويؤيد كل ناصح له أو مشير عليه، أو ناقد لتصرف من تصرفاته. قال له رجل: اتق الله يا أمير المؤمنين، فأنكر عليه بعض الحاضرين، ولكن عمر قال له: دعه، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها!

وفي جو الحرية تظهر الأفكار في النور، فيمكن لأهل العلم أن يناقشوها ويسلطوا أضواء النقد عليها، فتثبت وتبقى، أو تختفي وتذهب، أو تعدل وتهذب، بدل ان تظل في ظلام السراديب، حتى يفاجأ الناس بها، وقد شبت عن الطوق، ولم يشهدوا ولادتها وطفولتها من قبل.

علينا أن نستحضر أن هذا التطرف مصدره الفكر، ولهذا ينبغي أن يكون علاجه بالفكر أيضا، فلا يقاوم الشبهة إلا الحجة، ولا يعارض كلام اللسان بكلم السنان.

ومن أكبر الأخطاء اللجوء إلى القوة والبطش، لتصفية هذا الفكر ومطاردة أهله، فإنه يختفي بالاضطهاد ولا يموت، ويكمن كمون النار في الكبريت ولا يزول.

فواجبنا الأول العمل على تكوين وعي إسلامي رشيد يقوم على فقه مستنير لأحكام الإسلام، فقه يرد الفروع إلى الأصول، والجزئي إلى الكلي والظني إلى القطعي، ويأخذ الأحكام من المنابع الأصلية، غير مكتف بالقنوات الفرعية. وإيجاد مثل هذا النوع من الوعي والفقه أمر ليس بالهين، وتحويل الإنسان من فكر اعتنقه وآمن بصحته – صوابا كان أم خطأ – يحتاج إلى جهد صادق، وصبر مصابر، واستعانة بالله.

ومما جهل المسؤولون أن أعجز الناس عن التغيير المنشود وإيجاد الوعي المطلوب أصحاب السلطة، ألسنتها وأقلامها وأجهزتها. فكلامهم مرفوض شكلا، غير مقبول أصلا.
إن التفقيه المنشود لا يمكن أن يقوم به إلا علماء بعيدون عن تأثير السلطان رغبة ورهبة، حائزون على ثقة هؤلاء الشباب، ثقتهم بأصالة علمهم، وثقتهم بقوة دينهم. ولا يتحقق هذا إلا في مناخ طبيعي حر، بعيد عن بريق الوعود، وسوط الوعيد، لا تحده أبواب مغلقة، ولا أسوار محدقة. ولا يتم ذلك بين عشية وضحاها بالتلقين الفوقي، أو الأوامر العسكرية، إنما يتم باللقاء الحر، والحوار البناء، والأخذ والرد، وعلى المدى الطويل.

لا تقابلوا التكفير بتكفير مثله:
ومما يؤكد التحذير منه والتنبيه على خطره: أن لا نقابل التطرف الفكري تطرف فكري مماثل، فنواجه التعصب بتعصب، والرفض بالرفض، ومجازاة سيئة بمثلها. ومن ذلك أن تهم الذين كفروا الناس بالكفر أيضا على حد قول من قال: من كفرنا كفرناه، وربما استدل بعضهم بالحديث: من كفر مسلما فقد كفر.

فالحق أننا لو فعلنا ذلك لوقعنا في نفس الهاوية التي وقعوا فيها. ولنا في أمير المؤمنين علي رضي الله عنه أسوة حسنة، في موقفه من الخوارج الذين قاتلوه واتهموه بأشنع ما يتهم به مسلم عادي، فكيف بعلم الأعلام، وفارس الإسلام زوج البتول وابن عم الرسول (ص) سيف الحق المسلول؟

بيد أنه (ر) أنكر عليهم باطلهم دون أن يقابل تهمهم بمثلها، أو يكفرهم كما كفروه، بل استبقاهم في دائرة الإسلام، إحسانا للظن بهم، وحملا لحالهم على أحسن المحامل. سأله بعض الناس عن الخوارج: أكفار هم؟ فكان جوابه: من الكفر فروا، قيل له فما هم؟ قال أخواننا بالأمس بغوا علينا اليوم!
فإن أصروا على موقفهم وأبوا القتال قوتلوا حتى يفيئوا إلى أمر الله. وفي المعركة: لا يتبع مدبرهم، ولا يجهز على جريحهم، ولا يقتل أسيرهم، ولا تسبى نساؤهم، ولا تغنم أموالهم. فإنما هم مسلمون يقاتلون لدفع أذاهم، وردهم إلى حظيرة الوحدة، لا لاستئصال شأفتهم وإبادة خضرائهم.

فإذا كفوا أيديهم وأعلنوا الطاعة في المعروف، وجب الكف عنهم، وإن بقوا على رأيهم. إن الآراء لا تنزع من العقول بالقتال، ولا تفرض على الناس بالسيف.

ومما ينبغي التنويه به في هذا المقام أن جمهرة المحققين من العلماء تورعوا عن تكفير الخوارج، رغم إصرارهم على تكفير كل من عداهم من الأمة، واستباحة دمائهم وأموالهم، وحملهم السلاح عليهم. قال الإمام الشوكاني في نيل الأوطار (٣٥٢/٧) ذهب أكثر أهل الأصول من أهل السنة إلى أن الخوارج مسلمون، وأن حكم الإسلام يجري عليهم لتلفظهم بالشهادتين، ومواظبتهم على أركان الإسلام، وإنما فسقوا بتكفير المسلمين مستندين إلى تأويل فاسد، وجرهم ذلك إلى استباحة دماء مخالفيهم وأموالهم، والشهادة عليهم بالكفر والشرك.

واجب الشباب:

إن أول ما يجب على شبابنا أن يصنعوه هو تصحيح نظرتهم، وتقويم أفكارهم حتى يعرفوا دينهم على بصيرة ويفقهوه عن بينة. ونقطة البداية في هذا الفقه المنشود هي: سلامة المنهج الذي يجب أن يسلكوه في فهم الإسلام، والتعامل مع أنفسهم ومع الناس والحياة على أساسه.

ولهذا اهتم علماء الأمة بوضع القواعد والضوابط اللازمة لحسن الفهم والاستنباط، فيما نص عليه الشارع، أو فيما لا نص فيه. هناك قواعد وضوابط في كتب أصول الفقه، وهناك ما لا تضمه كتب الأصول. المهم إذن هو الفقه الواعي لدين الله، الفقه الذي لا يعتمد على قراءات فجة ولا على فهم سطحي لنصوص الشرع، يخطف الآيات والأحاديث خطفا، دون أن تبصر وتعمق لأسرارها ومقاصدها، وإنما نريده فقها رشيدا متكاملا، يقوم على منهج سديد. ويراعى في هذا الفقه عدة أمور:

فقه الجزئيات في ضوء الكليات:

أولا: إن معرفة الشريعة لا تتم بمجرد معرفة نصوصها الجزئية متفرقة متناثرة، مفصولا بعضها عن بعض، بل لا بد من رد فروعها إلى أصولها، جزيئاتها إلى كلياتها، ومتشابهاتها إلى محكماتها، وظنياتها إلى قطعياتها، حتى يتألف منها جميعا نسيج واحد مرتبط بعضه ببعض، متصل لحمته بسداه، ومبدؤه بمنتهاه.

أما أن يعثر على نص آية كريمة أو من حديث نبوي يفيد ظاهره حكما، فيتشبث به دون أن يقارنه بالأحاديث الأخرى وبالهدي النبوي العام، وبهدي الصحابة الراشدين، بل دون أن يرده إلى الأصول القرآنية نفسها، ويفهمه في ضوء المقاصد العامة للشريعة فلن يسلم من الخلل في فهمه والاضطراب في استنباطه، وبذلك يضرب الشريعة بعضها ببعض، ويعرضها لطعن الطاعنين، وسخرية الساخرين. لهذا اشترطوا لتحقيق الاجتهاد في الشريعة: المعرفة بمقاصدها وكلياتها، وإنما تحصل درجة الاجتهاد لمن اتصف بوصفين:

١) فهم مقاصد الشريعة على كمالها.
٢) التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها.

وهذا لا يتأتى إلا بسعة الاطلاع على النصوص، وخاصة الأحاديث والآثار، والتعمق في معرفة أسباب ورودها، وملابسات وقوعها، والغايات المتوخاة منها، والتمييز بين ما هو عام خالد منها، وبين ما بني منها على عرف قائم، أو ظرف زمني موقوت، أو مصلحة معينة، فيتغير تغير العرف أو الظرف أو المصلحة.

الفقه في مراتب الأحكام وأدب الخلاف:

من الفقه الذي يغفل عنه بعض المتدينين: معرفة مراتب الأحكام الشرعية، وأنها ليست في درجة واحدة من حيث جواز الاختلاف فيها.

فهناك الأحكام الظنية التي هي مجال الاجتهاد، تقبل تعدد الأفهام والتفسيرات، سواء كانت أحكاما فيما لا نص فيه أو فيما فيه نص ظني الثبوت، أو ظني الدلالة، أو ظنيهما معا، وهذا شأن معظم الأحكام المتعلقة بالعمل، كأحكام الفقه، فهذه يكفي فيها الظن، بخلاف الأحكام المتعلقة بالعقيدة، التي لا يغني فيها إلا القطع واليقين. والاختلاف في الأحكام الفرعية العملية والظنية لا شرر فيه ولا خطر منه، إذا كان مبنيا على اجتهاد شرعي صحيح، وهو رحمة بالأمة ومرونة في الشريعة، وسعة في الفقه، وقد اختلف فيها أصحاب النبي (ص) ومن تبعهم بإحسان، فما ضرهم ذلك شيئا، وما نال من أخوتهم ووحدتهم كثيرا ولا قليلا.

وهناك الأحكام المعلومة من الدين بالضرورة، بحيث يستوي في العلم بها الخاص والعام، وهي التي يكفر من أنكرها بغير خلاف، لما في إنكارها من تكذيب صريح لله ولرسوله (ص).

فلا يجوز أن توضع الأحكام كلها في إطار واحد، ودرجة واحدة، حتى يسارع بعض الناس إلى إلصاق الكفر أو الفسوق أو البدعة بكل من عارض حكما ما، لمجرد اشتهاره بين طلبة العلم، أو تداوله في الكتب دون تمييز بين الأصول والفروع.

علينا أن نعرف كيف تختلف آراؤها ولا تختلف قلوبنا، كيف يخالف المسلم في رأيه دون أن يمس أخوته، أو يفقد محبته أو احترامه لمخالفته، ودون أن يتهمه في عقله أو في علمه أو دينه؟ لقد قام عباقرة العلماء بالتحقيق والتمحيص والترجيح بين الأقوال المتنازع عليها، ولكن محاولاتهم لم ترفع الخلاف. وذلك لأن أسباب الخلاف قائمة في طبيعة البشر، وطبيعة الحياة، وطبيعة اللغة وطبيعة التكليف. فمن أراد أن يزيل الخلاف بالكلية فإنما يكلف الناس والحياة واللغة والشرائع ضد طبائعها.

والخلاف العلمي في ذاته لا خطر فيه إذا اقترن بالتسمح وسعة الصدر، وتحرر من التعصب والاتهام وضيق النظر.

العلم بقيم الأعمال ومراتبها:

ومن أهم ثمرات العلم وفقه في الدين : معرفة قيم الأعمال مراتبها الشرعية، والاحتفاظ لكل منها بموضعه في سلم المأمورات أو المنهيات، دون خلط أو إخلال بالنسب، أو تفريق بين المتماثلات، أو تسوية بين المختلفات.

مراتب المأمورات:

ومن هنا كانت الأمور المطلوبة في الإسلام مراتب ودرجات:

منها المستحب الذي رغب الشارع في فعله ولا حرج في تركه.

ومنها المسنون سنة مؤكدة، وهو ما واظب على فعله النبي (ص) ولم يتركه إلا نادرا، ولم يطلبه طلبا جازما، وكان من الصحابة من يترك مثل هذا أحيانا حتى لا يعده الناس واجبا فيحرجوا أنفسهم، كما ورد أن أبا بكر وعمر كانا يتركان الأضحية لذلك.

ومنها الواجب – كما في بعض المذاهب – وهو ما أمر به الشارع وإن لم يصل الأمر إلى درجة القطع.

ومنها الفرض، وهو ما ثبت وجوبه بطريق قطعي لا شبهة فيه، ورتب الشارع على فعله الثواب، وعلى تركه العقاب، ويلزم من تركه الفسق ومن جحده الكفر.

ومن المعلوم أن الفرض نوعان: فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، وفرض عين على كل من يلزمه.

وفرض العين كذلك درجات، فهناك فرائض اعتبرها الإسلام أركانا أساسية، وهي خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا. وهناك فرائض أخرى دون هذه في الأهمية والمنزلة، وإن كانت مطلوبة في دين الله طلبا جازما.

والإسلام ولا شك يقدم فرض العين على فرض الكفاية، ولهذا يقدم بر الوالدين وطاعتهما على الجهاد ما دام فرض كفاية، ولا يسمح للابن بالجهاد حينئذ بغير إذن الوالدين، كما صحت بذلك الأحاديث عن النبي (ص).

ويقدم فرض العين المتعلق بحق المجموع على الفرض المتعلق بحق فرد أو أفراد، كالجهاد وبر الوالدين، فالجهاد إذا فرض عين على قوم – كما في حالة هجوم عدو كافر على أهل بلد – مقدم على حق الوالدين في البر والطاعة.

ويقدم الفرض على الواجب، والواجب على السنة، والسنة المؤكدة على المستحب.

والإسلام كذلك يقدم القربات الاجتماعية على القربات الفردية، ويفضل ما يتعدى نفعه إلى الغير على ما يقتصر نعفه على فاعله.

ولهذا يفضل الجهاد على العبادة الفردية، ويفضل الفقه والعلم على العبادة، والفقيه على العابد، وإصلاح ذات البين على التطوع بالصلاة والصيام والصدقة.

ويفضل عمل الإمام العادل في رعيته على تطوعه بنوافل العبادات بأضعاف مضاعفة: "ليوم من إمام عادل أفضل من عبادة ستين سنة". كما أن الإسلام يؤثر أعمال القلوب على أعمال الجوارح، ويقدم العقيدة على العمل، ويعتبرها هي المحور والأساس.

وفي عصور الانحطاط أهمل المسلمون فروض الكفاية المتعلقة بمجموع الأمة كالتفوق العلمي والصناعي والحربي، والاجتهاد في الفقه المعاصر واستنباط الأحكام، ونشر الدعوة إلى الإسلام ومثل مقاومة السلطان الجائر.

واهملوا بعض الفرائض العينية، أو أعطوها دون قيمتها، مثل فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. واهتموا ببعض الأركان أكثر من بعض، فاهتموا بالصوم أكثر من الصلاة، فوجد من المسلمين من يتكاسل عن الصلاة، بل من يتركها بالمرة، والمتحمسون اهتموا بالصلاة أكثر من الزكاة مع أن الله قرن بينهما في كتابه في ٢٨ موضعا.

واهتموا ببعض النوافل أكثر من اهتمامهم بالفرائض والواجبات، كما ملاحظ عند الكثير الذين يكثرون الأذكار والأوراد ولم يولوا هذا الاهتمام لكثير من الفرائض الاجتماعية مثل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومقاومة الظلم الاجتماعي والسياسي.

مراتب المنهيات:

كما أن الأمور التي ينهى عنها الإسلام تتخذ أيضا مراتب ودرجات. منها المكروه تنزيها، وهو ما كان إلى الحلال أقرب، ومنها المكروه تحريما، وهو ما كان إلى الحرام أقرب. ومنها المشتبهات، فمن وقع فيها وقع في الحرام. ومنها الحرام الصريح، الذي فصله الله في كتابه وبينه الرسول في سنته (ص).

والحرام نوعان: صغائر وكبائر، والصغائر تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، أما الكبائر فلا يغسلها ولا يمحوها إلا توبة نصوح، صادرة من قلب كواه الندم، وطهره الدمع السخين.

والكبائر نفسها تتفاوت، فمنها ما عده النبي (ص) أكبر الكبائر وعلى رأسها الإشراك بالله، ويليه ذنوب أخرى ذكرتها الأحاديث، مثل عقوق الوالدين، وشهادة الزور، والسحر وقتل النفس التي حرم الله، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات المؤمنات.

ومما وقع فيه الخلل والاضطراب: اشتغال كثير من الناس بمحاربة المكروهات أكثر مما اشتغلوا بحرب المحرمات المنتشرة، أو الواجبات المضيعة. وانصراف الكثيرين إلى مقاومة الصغائر مع

إغفال الكبائر الموبقات، كالسحر والكهانة، واتخاذ القبور مساجد، والاستغاثة بالموتى ونحو ذلك مما كدر صفاء عقيدة التوحيد.

مراتب الناس مع الأعمال:

كما أن الأعمال مراتب، فالناس كذلك مراتب. ومن الخطأ الفاحش أن نعامل كل الناس على أنهم في مرتبة واحدة، مع أن في الدين متسعا للجميع حسب مراتبهم واستعداداتهم، وقديما قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين. قال الله تعالى: ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله. (فاطر:٣٢).

وقد فسر الظالم لنفسه بأنه: المقصر في بعض الواجبات، والمرتكب لبعض المحظورات. وفسر المقتصد بأنه: المقتصر على فعل الواجبات وترك المحرمات. وفسر السابق بالخيرات بأنه: الذي لا يكتفي بفعل الواجبات، بل يزيد عليها السنن والمستحبات، كما أنه لا يقف عند ترك المحرمات، بل يضيف إليها اتقاء الشبهات والمكروهات، بل يدع بعض ما لا بأس به حذرا مما به بأس. وهذه الأصناف الثلاثة جميعا داخلة في الأمة المصطفاة التي أورثها الله الكتاب بنص الآية الكريمة.

ولهذا من الخطأ والخطل إخراج بعض الناس من الملة والأمة لمجرد أنهم عصاة ظالمون.

تقدير ظروف الناس وأعذارهم:

ومن الفقه المطلوب والمتمم لما ذكرناه تقدير مستويات الناس وظروفهم وأعذارهم وضعف احتمالهم في مواجهة القوى الضاغطة عليهم.

فمن الخطأ أن نطالب عموم الناس أن يلحقوا بجوار سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، فيقوموا إلى أئمة الجور وطواغيت الحكم فيأمروهم وينهوهم ويأخذوا على أيديهم ليظفروا بالشهادة في سبيل الله، وهي أعلى وأغلى ما يتمناه مسلم لنفسه. فهذه المنزلة فضيلة لا يقدر عليها إلا أولو العزم وقليل ما هم، وليست فريضة يطالب الناس بها ويحاسبون عليها.

وقد يكتفي بعض الناس بأن يقول كلمة الحق من بعيد، وقد يلتزم الصمت لأنه لا يرى فائدة من الإنكار باللسان بعد أن رأى شحا مطاعا وهوى متبعا، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعكف على خويصة نفسه.

وقد يرى البعض أن التغيير إنما يبدأ من القاعدة لا من القمة، وأن الإصلاح يجب أن يتجه إلى الأفراد أولا، فإذا صلحوا صلحت بهم ومعهم الجماعة، وقد يرى بعض آخر أن تغيير الأنظمة الفاسدة التي قامت على التغريب والعلمانية لا يتم إلا بعمل جماعي، واضح الأهداف، مدروس الوسائل، طويل المراحل، عميق الجذور، تقوم به حركة إسلامية شعبية قادرة على نقل الأحلام إلى واقع معاش.

الفقه في سنة الله في خلقه:

ومن الفقه اللازم كذلك: مراعاة سنن الله الكونية والشرعية في التدرج، والصبر على الأشياء حتى تنضج وتبلغ مداها، ذلك أن العجلة التي هي طبيعة الإنسان عامة، والشباب خاصة والسرعة التي هي من طبيعة هذا العصر، تجعل كثيرين من الشباب المتحمس لدينه، يريد أن يغرس اليوم ليجني الثمرة في الغد، أو يزرع في الصباح ليحصد في المساء، ذاهلين أن سنة الله الكونية تأبى هذا. فالنواة لا تصبح شجرة مثمرة إلا بعد مراحل تقصر أو تطول، حسب نوعها وتربتها ومناخها، وظروف نمائها إلى أن تؤتي أكلها بإذن ربها.

وهكذا سنة الله في عالم الحيوان، والإنسان: الجنين يتكون نطفة، فعلقة، فمضغة، فعظاما يكسوه الله لحما، ثم ينشئه خلقا آخر، حتى يخرج إلى الحياة طفلا.
إن لسلامة النظرية، أثرا هاما في الوصول إلى الحل، بل يتوقف الحل على صحتها ومقداروضوحها.

وسنن النصر وشروطه:

من سنن الله تعالى أن ينصر المؤمنين، إذا عملوا جاهدين لنشر دعوتهم، وتبليغ رسالتهم، وتكثير عددهم، وتوسيع قاعدتهم، وإقامة الحجة على مخالفيهم، وكسب الرأي حولهم حتى يكون معهم القوة التي يقدرون بها على مواجهة أعدائهم. فليس من المقبول عقلا ولا شرعا أن يواجه الواحد ماءة أو ألفا، وأقصى ما ذكره القرآن أن يواجه الواحد من المسلمين عشرة من الكافرين في حال القوة والعزيمة، أما في حال الضعف والرخصة بالواحد باثنين فقط.(إن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بأذن الله).

ومن أهم الشروط لاستحقاق النصر والتمكين هو الصبر على الأذى وطول الطريق، والثبات في مواجهة الاستفزاز والتحدي كما في الحديث" واعلم أن النصر مع الصبر".
إن ظاهرة الصحوة الإسلامية ظاهرة صحية وطبيعية، ودلالاتها واضحة، فهي عودة إلى الفطرة، ورجوع إلى الأصل، والأصل في ديار المسلمين هو الإسلام، منه المبدأ وإليه المنتهى، وفي ساعة العسرة لا يجد النا هنا إلا دينهم، يلوذون به، ويستمدون منه روح القوة، وأمل الحياة، ونور الطريق.

وظاهرة التشدد والصرامة عند الشباب لا تعالج بالعنف، ولا تقابل بالتهديد ولا بالتشكيك والاتهام. وإنما تعالج حقا بالاقتراب منهم، وحسن التفهم لمواقفهم وأفكارهم، وحسن الظن بنواياهم ودوافعهم، والعمل على إزالة الفجوة بينهم وبين المجتمع الذي يعيشون فيه، وإجراء الحوار العلمي بالحسنى معهم، حتى تتضح المفاهيم والرؤى، وتزول الشبهات ويتحرر موضع النزاع، ويعرف المتفق عليه من المختلف فيه.

ومن أهم ما يحب الشيخ أن يسدي إلى الشباب من النصائح : احترام التخصص في العلم، وعدم الاكتفاء بالقليل من العلم زادا للمجتهد الذي يفتي في مسألة هامة تقرر مصير المسلمين. والأخذ عن أهل الورع والاعتدال والتقوى، والثقات من علماء الدين. ومن ادعى علم الكتاب والسنة وطعن في علماء الأمة فليس بمأمون على تعاليم الدين.

ويجب على المسلم أن يتخلى عن التشدد والغلو، ويلزم جانب الاعتدال والتيسير، وخصوصا مع عامة الناس الذين لا يطيقون ما يطيقه الخواص من أهل الورع والتقوى.
كما ينبغي اتباع المنهج الذي رسمه القرآن في الدعوة إلى سبيل الله وجدال المخالفين(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) (النحل:١٢٥). ولا شك أن أسلوب الجدال مع المسلم يجب أن يكون أحسن من أسلوب الجدال مع المخالف الكافر المنكر.

أدب الدعوة والحوار:
يجب مراعاة حق الأبوة والأمومة والرحم، فلا يجوز مواجهة الآباء والأمهات بخشونة، ولا الإخوة والأخوات بغلظة بدعوى أنهم عصاة. وكذلك مراعاة حق السن فلا ينبغي إسقاط هذا الفارق، ومخاطبة الكبير مخاطبة الصغير، ومعاملة الشيوخ كما يعامل الشباب.
ومراعاة حق السابقة فمن كان له فضل سبق في الدعوة إلى الله وتعليم الناس الخير أو كان له بلاء حسن في نصرة دين الله تعالى، فلا ينبغي جحود فضله، وإهالة التراب على سابقته، أو الطعن فيه، لفتوره بعد نشاط، أو ظهور ضعف منه بعد قوة، أو تفريط بعد استقامة فإن رصيده من الخير وسابقته في الجهاد تشفع له. هذا ما قرره النبي (ص) في شأن حاطب بن أبي بلتعة، حين زلت قدمه إلى ما يشبه الخيانة حيث كتب إلى مشركي مكة، يخبرهم بما أعده النبي (ص) من عدد وعدة لفتح بلدهم، في الوقت الذي كان النبي شديد الحرص على سرية التحرك العسكري. وهدأ النبي عمر الذي استأذن في ضرب عنقه بقولته المشهورة: ما يدريكم، لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فإني قد غفرت لكم".

على الشباب الدعاة أن ينزلوا من سماء الأحلام إلى أرض الواقع، ليعايشوا الناس من الفلاحين والحرفيين والعمال الجاهدين المجاهدين في المدن والقرى. سيجدون هناك الفطرة السليمة، والقلوب الطيبة، والأجسام المكدودة من العمل. فليسهموا في تعليم الأميين منهم حتى يقرأوا، وفي علاج المرضى حتى يصحوا، وفي تقوية المتعثرين حتى ينهضوا، وفي مساعدة المتبطلين حتى يعملوا، وفي معونة المحتاجين حتى يكتفوا، وفي توعية المتخلفين حتى يتطوروا، وفي تذكير العصاة حتى يتوبوا، والأخذ بيد المنحرفين حتى يستقيموا، وإنصاف المظلومين حتى ينتعشوا.

ويتم هذا العمل عن طريق إنشاء لجان لمحو الأمية، وجمع الزكاة وتوزيعها، ولإصلاح ذات البين، ولمحاربة الأمراض ومعالجة الإدمان، ومقاومة العادات الضارة، ونشر العادات الصالحة في مكانها. وما أكثر الميادين التي تحتاج إلى جهود الشباب، وعزائم الشباب، وحماس الشباب.

ومما ينصح به شباب الإسلام أن يخلعوا منظارهم الأسود عندما ينظرون إلى الناس، وأن يفترضوا الخير في عباد الله، ويقدموا حسن الظن، وأن يعلموا أن الأصل هو البراءة، وحمل حال أهل الإسلام

على خير. ولقد علمنا رسول الله (ص) ان نرفق بالناس عندما يخطئون، ونصحح مفاهيمهم بالتي هي أحسن حتى يقتنعوا. وأن لا نفقد الأمل في صلاح من ظهر فيه الفساد.

خاتمة:

لقد رأينا في الصفحات السابقة كيف حلل سماحة الشيخ "الصحوة الإسلامية" تحليلا، دقيقا، وبرهن لأسباب وجود التطرف الديني في البلاد الإسلامية، رسم لنا خارطة الطريق للخروج من هذه الظاهرة الفتاكة للحركات الإسلامية، بأسلوب مقنع جذاب، في ضوء التجارب التي عاشها، والتي عاشر فيها أهل التطرف. إن هذه النظرة الثاقبة التي تميز سماحة الشيخ يوسف القرضاوي عن قرنائه من عباقرة الدعاة والمفكرين، هي التي أردنا أن نسلط الضوء عليه في هذا البحث السريع. ولا أظنني قد وفيت حقه من البيان والتحليل لأن ذلك يتطلب المجلدات كي نأتي إلى دقائق المسائل ولطائف الأدب العربي وجمائل التعبير. نسأل الله تعالى أن ينفع العامل الإسلامين بعلم سماحة الشيخ وبأفكاره النيرة، ونرجو الله سبحانه وتعالى أن يجاوز عن أخطائه وهفواته، في اجتهاده وآرائه، كما ندعو الله عز وجل أن يطيل عمر سماحته في طاعته وخدمة الإسلام والمسلمين، إنه نعم المولى ونعم المجيب.

****